سؤال وجواب
ونصائح ذهبية في التربية الإسلامية

فضيلة الشيخ
محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد للَّه رب العالمين، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه. ونتوب إليه ونستغفره ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

لم يتعرض مصطلح ما في تاريخ مصطلحات الفكر الإنساني للجدل أو الاختلاف في التأييد، مثلما تعرض مصطلح «التربية»، فقد أدى فيه كل أصحاب التيار الثقافي، على اختلاف مشاربهم، وهواياتهم، بدلوهم ووجدت فيه كل النزعات الفكرية والفلسفية مدخلاً مناسباً لها، لتعبر عن رأيها، وتحاول أن تصوغ تعريفاً مانعاً جامعاً لكلمة «التربية». ولسنا في كتابنا هذا بصدد الحكم على صحة أو خطأ ما انتهى إليه التربويون، والفلاسفة والمفكرون، والتشيليون، والمدرسون من صياغات لمفهوم التربية، وإنما لنؤكد ببساطة «خلال صفحات هذا الكتاب» أن مؤلف الكتاب، فضيلة الشيخ محمد متولي

الشعراوي، الداعية الإسلامي الكبير، قد قدم في مصنفه هذا تعريفاً للتربية، أدق ما تكون الدقة، مزج فيه، ببلاغته المعهودة، وأدلته المنطقية الدامغة، وحجته القوية البرهان، وقدرته الفائقة على الإقناع، بين كل هذا الكم الهائل من الآراء والأيديولوجيات المتضاربة، وخرج علينا بخلاصة فكره الثاقب، وتجربته الطويلة في الوعظ والإرشاد، مشكلاً ذلك المفهوم الرائع لتلك الرؤية الإسلامية التربوية المعاصرة.

لقد جمعت تلك الرؤية «التي يعرضها داعيتنا الكبير» شتات كل ما طرح على مائدة الفكر من ألوان التفسير والتعريف لمصطلح «التربية»، جمعت بين مفهومات الحديث وكيفية اشتقاقها المباشر من حيثية الإيمان باللَّه، ثم مازجت «في سلاسة» بين شقي التربية: المادية والمعنوية، ثم عرضت لقضية المفاضلة بين المربين وخطورتها، من خلال تحليلها المشوق لقصة «يوسف»، وتناولت كذلك العلاقة الوثيقة بين التربية والعلم، محللاً قيمة العلم في تطبيق النظريات التربوية، مستنداً استناداً غير قليل إلى دور الفطرة في توجيه الإنسان وأهمية الأسباب الملحة على الربط بين التعقل والتصور.

وقد ركزت رؤية الإسلام المعاصرة في التربية، كما

عرضها فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي، على دور اللغة في معرفة اللّه، وكيف كان الإيمان ضرورة أمام التربية لتأتي بأفضل نتائجها، كأبدع ما يكون أداء الفكر، ولا يفوتها في أثناء ذلك أن تعرض عرضاً دقيقاً لطبيعة النشاط من حيث إنه محكوم بإطار ديني، وإطار غير ديني في آن واحد.

إن هذه الرؤية التربوية الإسلامية المعاصرة تجيب في ثنايا عرضها الرائع خلال صفحات هذا الكتاب، عن أدق مسائل العصر، حساسية وأهمية، مثل: حكم اختلاط الفتيات وبالشباب «من خلال قصة بنت شعيب»، ومسألة عدم تطبيق الشريعة الإسلامية حتى الآن، وكذلك قضية العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، كأفراد مجتمع واحد، وكذلك علاقة المسلم بالأديان السابقة.

ثم تناول كيفية تحليل العلاقة بين الموجتين الحاكمتين للعلم، وهما: موجة العلم المادي، وموجة المذهبية النظرية، وكيف أن تلك الرؤية الرائعة الإسلامية للتربية تمازج بين الشقين المادي والروحي معاً، مستعرضة حركة الحياة وارتباطها بقوة الخالق من جهة، وأن مصادر الفكر المعاصر تقتصر في جملتها، على فكر محكوم بدين الحق، وعلى فكر أناس متمدينين، وعلى فكر أناس ليس

لهم دين من جهة أخرى، وكيف أن رؤية الإسلام تمازج بين تلك المصادر المتباينة، في رؤية تكفل لمصطلح «التربية» أن يجمع شتات تعريفات، وأن يلملم ما تناثر منه، عبر درب الفكر والتنوير، وبشكل لم يسبق إليه أي كتاب تربوي من قبل.

وأخيراً نسأل اللَّه تعالى أن يكون ما قمنا به من جهد في خدمة الدين خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثبت لكل من ينظر فيه خير الجزاء، إنه سميع مجيب.

الناشر

الشباب مرحلة وسط

إذا كان الموضوع الذي اخْتير لي هو تربية الشباب، فأنا أرجو أن نقف على مدلولات الألفاظ التي يحملها عنوان ذلك الموضوع، حتى نلتقي جميعاً على مسلمات ننتهي منها إلى نتائج مسلمة، إن شاء اللَّه. تربية الشباب هنا إضافة، كلمة تربية أضيفت لكلمة شباب، ودائماً المضاف يتعرف بالمضاف إليه. فيجب أن نعرف مدلول كلمة الشباب، ثم نعرف بعد ذلك مدلول كلمة التربية، حتى نكون على بينة من علاج هذا الموضوع.

الشباب مرحلة من مراحل العمر، والعمر كما قلت وأقول دائماً، وسط بين قوسين: قوس الميلاد وقوس الوفاة.

والميلاد والوفاة أمران ليس في قدرة صاحب العمر أيضاً، فهو لا يتحكم في ميلاده كما لا يستطيع أن يتحكم في وفاته، فكان من المنطقي أن يكون الإنسان أيضاً غير حر فيما بين القوسين من حركة هذا العمر، ما دام لا يتحكم في البداية، وما دام لا يتحكم في النهاية، فيجب

أن يأخذ الوسط أيضاً على أنه غير متحكم فيه، إلا ما شاء خالقه أن يتحكم فيه.

فإذا كان الشباب مرحلة من مراحل العمر، فما مدلولها؟

قالت اللغة: الشباب هو الفتاء وحداثة السن، أو هو بلوغ الأشد أو الاستواء، وكل ذلك يعني: الحيوية والفتوة والرجولة، والحق سبحانه وتعالى حينما تعرض لأطوار الإنسان، تعرض لها تعرضاً مرحلياً، قبل أن يخرج إلى الوجود، وبعد أن يخرج إلى الوجود.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [الحج: ٥].

تلك هي المراحل، مراحل قبل أن يولد، ومراحل بعد أن يولد، وهنا يجب أن نستقبل كلام اللَّه استقبال المتفحص لكل كلمة فيه، لنعرف معطيات هذه الكلمة فاللَّه لا يؤرخ فقط لمراحل عمر الإنسان، ولكنه يعطي من أسرار إعجاز كلامه ما يدلنا على صدق كل كلمة في

الكتاب الكريم، والمراحل معلومة فيقول اللَّه في كتابه العزيز:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

إذن فللإنسان وسائل إدراك أخرى تربطه بعالمه الخارجي، وله وسائل إدراك أخرى تربطه بعالمه الداخلي، فوسائل الإدراك التي تربطه بعالمه الداخلي، هي ما يجده الإنسان بغير آلة من آلات حسه الظاهرة المعروفة، كما يعرف متى يجوع ومتى يظمأ، يعرف كيف يغضب، ويعرف كيف يحزن بأي الآلات وبأي شيء من جهازه أدرك ذلك؟ تلك هي وسائل الإدراك التي تربطه بعالمه الداخلي، ووسائل أخرى تربطه بعالمه الخارجي فيسمع ويبصر، ويكون من المسموعات ومن المبصرات المرئية، ما يجعل منها قضايا فكرية تختمر في فؤاده إلى أن تصبح قضايا مسلمة، يبني عليها حركة حياته.

فالشباب إذاً هو بلوغ الأشد، فإذا عرفنا ذلك نقول لا يبلغ الشيء أشده إلا إذا اكتملت تربيته، واكمتل أيضاً تأديبه، ليبلغ أشده، إذاً فالعنوان لا يصح أن نقول تربية الشباب لأن الشباب هو الذي تجاوز مرحلة التربية إلى النضج، والذي يتعبنا أننا نريد أن نؤجل مجال التربية إلى

مرحلة الشباب، ومجال التربية هو ما قبل الشباب تربية وتأديباً.

الإنسان منا حين يبدأ في الحياة، يبدأ لا يقدر ولا يعلم، ثم يبتدئ يعلم ويقدر، فإذا اكتملت عنده قدرة، واكتمل عنده علم، ابتدأت حركته في الحياة لتعطي فوق ما يستهلك هو، ليعوض لأمثاله الذين لم يقدروا، ولأمثاله الذين لم يعلموا مقومات حياتهم. ولكن الآفة أننا نريد أن نجعل من مرحلة الشباب مرحلة تربية، ومرحلة الشباب هي التي يقول فيها الحكيم: (من شب على شيء شاب عليه) لماذا؟

لأن مرحلة الشباب كما يحددها من خلقنا.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [النور: ٥٩].

فلذلك يقول الرسول ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»، وبعد ذلك تعظم السمة بعد أن وعظنا القرآن في أن نتجنب القريبات حين نتزوج لأن القريبات حين يتزوج منهن الإنسان يؤول أمر النسل إلى ضعف، أما إذا اغترب... فإنه يؤول أمر النسل إلى قوة، ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ: «اغتربوا لا تضووا». وفي العلم التجريبي الحديث أجريت التجارب في عالم النبات، على أن يكون النوعان بعيدين، وحصلت نتيجة سارة أتت من

الذرة في أمريكا، أضعاف ما كانت تؤتيه قبل تفرق الذكورة والأنوثة، التجربة التي أجريت هذه يسمونها «تربية الهجين»، أي كلما ابتعد الجنسان الذكورة والأنوثة، كانت الحصيلة أقوى.

إذا نلمح بواسطة العلم التجريبي أن القرآن حينما حرم زواج الأمهات وزواج البنات وزواج القريبات من الأدنى، إنما حرص على أن يوجد النسل القوي، وإذا ما ابتعد الإنسان بهذه القرابة كان ذلك معناه إيجاد نسل قوي. الرسول ﷺ يقول: «اغتربوا لا تضووا»، أي لا تهزلوا وتضعفوا، ولذلك شاع على ألسنة الشعراء العرب قولهم:

أنصح من كان بعي الهم تزوج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

ويقول في وصف الشجاع:

فتى لم تلده أمٌّ قريبة فيضوي وقد يضوي فتًى سليل الأقارب

حين يوجهنا القرآن وتوجهنا السنة إلى هذا يكون قد لوحظ أول شيء في التربية أن يكون الوليد الذي يؤمل عطاؤه من اللَّه أن يكون وليداً قوياً في خصائصه لأنه لن يجمع خاصية جنس واحد ولا نوع واحد الذي يكون إذا تزوج قريبة. ولكنه حين يتزوج من بعيدة، يأخذ خصائص

القوة من هذا وخصائص القوة من هذا فينشأ ذلك الوليد القوي.

وبعد ذلك ينطلق الإسلام انطلاقة: وإن كانت هينة إلا أن لها تأثيراً قوياً في نفسية الوليد بعد أن يوجد.

خير الأسماء

تدخل التشريع في إطلاق الاسم على الوليد؛ فالرسول ﷺ يقول: «أحسنوا أسماءكم. فإنكم ستدعون يوم القيامة بأسمائكم» ويضع الرسول تجربة تطبيقية فينفر من الأسماء التي لها معنى لا تسر له النفس فمثلاً:

سار مرة في طريق وكان ذلك الطريق بين جبلين فسأل عن اسم الجبلين فقيل له: ذلك مخزي وهذا فاضح، فلم يسر الرسول ﷺ بين الجبلين المخزي والفاضح. وأراد رسول اللَّه ﷺ مرة أن تحلب له لقحة[١]، فانتدب صحابياً ليحلبها فقال: «من يحلب هذه اللقحة؟» فقال رجل: أنا. قال: «ما اسمك؟» قال: مرة، قال: «اجلس»... ثم انتدب آخر فقال: «ما اسمك؟»... قال: اسمي حرب، قال: «اجلس»... ثم انتدب ثالثاً قال: «ما اسمك؟» قال: اسمي يعيش... فقال: «احلب».

(١) اللقحة: هي الشاة.

الطفل وعاطفة أمه

هذا يدل على أن من حق الوليد أن يحسن أبواه اسمه، وبعده تأتي مسألة الرضاع فيقرر القرآن الحق الذي يجب أن يكون للوليد رضاعة، فقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ودلت الدراسات النفسية والطبية على أن ذلك هو الزمن الضروري حتى يغذى الطفل من لبن أمه، وبعد ذلك الانفصال. وعلى الأب أن يدفع لها في الرضاع وبعد ذلك ينتقل من الرضاع إلى مرتبة الحضانة فيعطي الطفل لمن يناسب عمر تكوينه، فيجعل الحق للأم لأن الطفل في صغره ليس محتاجاً إلى العاطفة الرقيقة التي تناسب طبيعة تكوين الأم... وبعد ذلك يسير الإسلام في منهجه نحو التربية. فماذا تكون التربية؟

التربية معناها إيصال المربَّى إلى مرتبة الكمال التي هيئ لها، والتربية هي حيثية إيماننا بألوهية اللَّه، فنحن آمنا باللَّه معبوداً، لأننا آمنا به ربّاً.

ولذلك يقول الحق سبحانه حين يطلب منا أن نوجه الحمد لصاحب النعمة «الحمد للَّه»، وحيثية ذلك أنه رب العالمين، إذن فالتربية مأخوذة من حيثية إيماننا باللَّه،

ولكن تربية المخلوق هي تربية من خَلَقَ لمن خُلِقَ. فالفارق كبير جداً بين التربية التي أخذها خليفة اللَّه، وبين التربية التي كانت للَّه. وإذا كانت التربية تعني إيصال المربِّي إلى الكمال الذي هيئ له؛ فلا بد أن يعرف المربِّي ملكات المربى، حتى لا يربي ملكة على حساب ملكة، فيحصل التمزق في المربى والقلق النفسي بين ملكاته والتضارب، بين مقوماته.

الكل والجزء

والإنسان كلٌّ مركب من جزأين أساسيين، ولكنه مع كونه كلّاً مركباً من جزئين أساسيين، فهو جزئي أيضاً يعيش مع كلي مثله؛ فما الفرق بين الكلية في الإنسان وبين الجزئية فيه؟... الكل يطلق على شيء ذي أجزاء. كل جزء له حقيقة منفصلة عن حقيقة الجزء الآخر، فمثلاً كلمة الكرسي الذي أجلس عليه كل، لأنه مكون من أجزاء، وأجزاؤه الخشب والمسمار والجلد والطلاء الذي طلي به، كل جزء من هذه الأجزاء له مقوم خاص يختلف عن المقوم الآخر، فإذا اجتمعت هذه الأجزاء وجد ذلك الكل... فأنا لا يصلح لي أن أقول الخشب كرسي؛ لأنه جزء فقط، ولا المسمار كرسي ولا الجلد كرسي، ولا الطلاء كرسي، ولكن مجموع ذلك هو الكرسي، فذلك معنى الكل.

كذلك الإنسان كل، أجزاؤه الأساسية: المادة والروح... الروح ليست من الأشياء التي تنفصل ولها

عناصر؛ لأنها من أمر اللَّه، وذلك سِرٌّ استأثر اللَّه به. ولكن المادة وهي الجسم مركبة من عناصر وأجزاء. هذه العناصر والأجزاء حينما تندمج معها الروح، توجد فيها حياة. وحين توجد حياة توجد لذلك الإنسان ملكات نفسية وأجهزة متعددة فله قلب وله بطن وله عواطف وله غرائز وله وجدانيات وله مشاعر وله أحاسيس. كل ذلك أثر لوجود الملكات المتعددة فيه.

فالذي يقنن للإنسان على أنه بطن فقط، قد قنن لملكة فيه دون ملكة، وذلك هو المذهب المادي الاقتصادي، والذي يقنن للإنسان على أنه عقل فقط تلك هي المدرسة العقلية، والذي يقنن للإنسان على أنه عاطفة فقط، ذلك أمر الأدباء والفنانين، والذي يقنن للإنسان على أنه غرائز فقط ذلك أمر الوجوديين.

إذاً فلا يمكن لإنسان أن يضع قانون التربية لذلك الكل، إلا إذا عرف حقيقة أجزائه المكونة له، حتى لا يقنن لملكة على حساب أخرى، وإنما يقنن لكل الملكات حتى يسير الإنسان في مستوى مستقيم متعاضد، وبينما نجد الإنسان كليا نجده جزئيّاً وما معنى الجزئي؟ الجزئي هو أصل الكلي، والكلي شيء مكون من جزئيات، كل جزئية من حقيقة الجزئية الأخرى.

الكل والكلي

فالإنسان كل جزئياته زيد ومحمد وبكر وعلي. زيد ومحمد وبكر وعلي لا يختلفون في شيء من حقيقة تكوين الإنسان على أنه ناطق، إذاً فمن المعقول أن أقول زيد إنسان ومحمد إنسان وعلي إنسان، ولكن لم أستطع قبل ذلك أن أقول في الجزء: الخشب كرسي، ولا المسمار كرسي، فهذا هو الفارق بين الكل وبين الكلي.

التربية الإسلامية حين تضع منهجها، إنما تضع منهجها عن اللَّه الذي خلق الإنسان، وما دام اللَّه هو الذي خلق الإنسان فصاحب الصنعة الذي صنعها هو أعلم بها وهو الذي يقنن لها.

أما أن يخلق رب وبعد ذلك يأتي إنسان ليقنن لما خلق اللَّه... فذلك استحالة في عرف العقل... فإذا كان الحق هو الذي خلق، فالحق أيضاً هو الذي قنن. وحتى يعلم الإنسان حظه من التربية ككل، ويعلم حظه من التربية كجزئي لكل، يجب أن نفرق بين التربية المادية والتربية القيمية المعنوية.

فالرسول ﷺ ـ وأنتم تعلمون أن الصلاة كانت قرة عينه، وأنه كان يقف بين يدي ربه إلى أن تتورم قدماه ـ

ولكنه حين يكون في الصلاة ويسمع بكاء طفل يسرع في صلاته. . . تلك تربية للعاطفة بالنسبة للطفل الصغير، الذي لا يعرف أسباب ما يوجعه ولا ما يؤلمه، حتى يسرع الإنسان في علاج هذه الحاجة.

فالرسول ﷺ يسرع في صلاته حتى يقوم بهذه المهمة التربوية الأساسية، وبعد ذلك يتجه الإسلام إلى ناحية قوية، وهي ناحية المربي حين يفاضل بين المربين، لماذا؟

لأن في التفاضل بين المربين. . . يعطف على هذا، ولا يعطف على ذلك. . . يحب هذا ولا يحب ذاك. . . في تلك الأثناء. . . تتربى عند الذي يأخذ الحقَّ الأقلَّ عقدةُ مركب النقص. وحين تتربى عنده عقدة مركب النقص، يستشعر أنه ليس إنساناً سويّاً، وكذلك الإنسان الذي يحب أكثر، ولذلك يعرض القرآن بعض اللقطات التي عرضها في القصص في سورة يوسف. ما هذه اللقطة؟

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف: ٨].

إذاً فإيثار فرد بالحب عن الآخرين يُنشئ في نفس الآخرين عقدة النقص.

هذه العقدة قد تؤدي إلى أن يكون السلوك غير منطبق على المبدأ الخلقي، ولذلك حينما أحس إخوة يوسف بأن

يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم، فكروا في ماذا؟...

فكروا في أن يزيحوا المُحبَّ من طريقهم، وقالوا: نحن عصبة.

ولو أنهم فهموا بعض الفهم ليعرفوا أنهم جاؤوا بحيثية امتياز ذلك الصغير بالحب، لأنكم عصبة ولأنكم أشداء، وهو صغير يعطف عليه فلا تقيسوا العطف والحب هذا على العطف والحب عليكم؛ لأنكم اجتزتم المرحلة التي يعوزكم فيها العطف والحب، فالإنسان منا يحب صغيره قطعاً. لماذا يحبه؟ لأنه يعتقد أن ذلك الصغير بالنسبة لأخواته هو أقصرهم معه، وأنه في حاجة من العجز إلى شيء كثير من الحب، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيباً في الأب، ولا أخذوها بسبب حِقْدٍ على ذلك الابن.

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أنتم قلتم إنكم عصبة يعني جماعة أشداء أقوياء... أنتم لستم في حاجة إلى ذلك الحنان، وإلى ذلك الحب، وبعد ذلك ماذا كان. كان من أمرهم ما كان. قال: اقتلوا يوسف.

وبعد ذلك نلاحظ ظاهرة نفسية تبين لنا مدى عنصر الخير... حين يفكر في الشر، ومدى عنصر الشر...

حين يفكر في الشر. هؤلاء أسباط[١] وأبناء نبوة، وصحيح أن الانفعال البشري جعلهم يفكرون في إيذاء يوسف، ولكن انظروا أَسَارَ الإيذاء في خطه الأعلى إلى الشر؟ أم سار الإيذاء في خطه الأدنى من الشر؟

الاقتراح الأول جاء بعد الانفعال من ظاهرة حب أبيه له أكثر منهم، لننظر ماذا قالوا عن ذلك الانفعال؟

قالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾، تلك قمة الشر، ولكن بعد أن هدأت ثورة الانفعال قالوا: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾.

إذاً تنازلوا عن فكرة القتل، وقالوا: أو ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أخف من القتل ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ بعد ذلك هدأت انفعالات الشر فحين جاؤوا للتنفيذ قالوا: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ[٢]. يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾. إذاً فالتفكير في إيذائه، صاحبه التفكير أيضاً في نجاته... ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠].

هذا يدلنا على أن الخير حين يفكر في الشر لا يصعد الشر، ولكنه يتنازل في الشر فبعد أن فكر في القتل، فكر في إلقائه في الأرض، ثم فكر في إلقائه في الجب ليلتقطه

(١) أسباط أي أحفاد «ولد الولد».
(٢) الجب: البئر.

بعض السيارة. إذاً. . . فقد خفت المسألة، فالذي يقول إن إخوة يوسف كانوا كذا وكذا، وكانوا يفكرون في ذلك الشر، نقول لهم فكروا في الشر على ظاهرة أغيار الشر وانفعال الخلق، ولكن انظر: هل وصلوا في الشر مبلغاً أعلى مما فكروا فيه أولا، أم تدنوا في الشر، وتلك طبيعة تدل على طبيعة الخير في نفوسهم.

المساواة بين الأبناء

والذي يدلك على أن العقدة التي تترسب في الإنسان من أي لون من ألوان الانفعال الخاص بالعاطفة تتركز فيه، وتسيطر على كل تصرفاته حتى بعد أن يكبر عقله.

انظروا إليهم بعد أن ذهبوا إلى أخيهم، وقد صار عزيزاً[١] لمصر وبيده خزائن الأرض، وذهبوا ليطلبوا القوت بعد ذلك احتال يوسف ليبقي أخاه عنده ماذا قالوا؟... قالوا:

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

لا يزال الأصل موجوداً، وهو الانفعال. إذاً فالمنهج الإسلامي حينما يعرض فكرة المساواة بين الأبناء أو بين القوم الذين وكل إلى الإنسان تربيتهم... نعم قد يكون في بعضهم مخايل تحب، وفي بعضهم مخايل لا تحب، ولكنهم في موضع التربية سواء.

وهذه التربية ليس معناها أن نسمو بأهل المواهب إلى

(١) عزيزاً لمصر: أي الوزير الأول.

فوق، ولكن أن نأخذ بيد العاجزين حتى نسيرهم إلى مرتبة المواهب، وبذلك يمتاز مربٍ عن مربٍ.

فالأستاذ مثلاً يحب تلميذاً نجيباً، ولكن ألا يشعر غير النجيب بأنه يحب النجيب أكثر منه، ولكن عليه أن يعتذر لغير النجيب بأعذار، ولو كانت أعذاراً صورية، حتى يقتلع من نفسه فكرة أنه يحب هذا أكثر منه لأنه إذا استقر في نفسه ذلك... فسوف يكون الأستاذ مبغوض التوجيه، وسوف لا يحترمه الموجَّهُ، ولكنه إذا خلع على تقصير تلميذه سبباً من الأسباب التي تبرره، كأن يقول له مثلاً أن يبحث عما وراء ذلك من انفعالات. فيسأله:

ما الظروف التي تمنعك أن تكون معي؟ حين يستشعر المقصر أنك معه بعقلك ومعه بعواطفك ومعه بحبك وسألته عن أموره الخلفية التي تجعله عاجزاً مقصراً يعلم أنك تحبه، وأنك حريص على أن تأخذ بيده.

وإذا ما قصر تلاميذ أيضاً... فيجب ألا يجابه المقصر تجبيهاً أو مجابهة تشعره بموضعه من النقص، لأنه سيتجمد على ذلك، وبعدها لا يبالي مدحته أو ذممته، لأنه وضع نفسه ذلك الموضع.

ولذلك فإن التربية الإسلامية حين يعرضها لنا حديث رسول اللَّه ﷺ: «ما بال أحدكم يفعل كذ» لم يواجه من

فعل بفعله حتى لا يخجله، وحين لا يخجله... يكون حريصاً على كرامته في المجتمع، ولا ينذره في المجتمع، ويكفي أن يعلم نفيه أنه قد قصر، لكن دون أن يعلم غيره أنه هو الذي قصر، وبعد ذلك يأتي الرسول ﷺ بالمنهج الأساسي في التربية وهو أن يحسن المربي كيف يأخذ المربى من أقصر طريق إلى موقع الحق في أي قضية من القضايا. هذه القضايا قد تكون قضايا صعبة للعقل فيها وقفة، ولكن لباقة الأستاذ وحسن استعداده واتساع ثقافته، تجعل من هذه كلها أدوات تعينه على أن يصل بالمربى إلى الحقيقة التي يريدها من أيسر طريق إلى الفهم وبأقل وسيلة في الإقناع.

يقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة» نقية، لا هو خيِّر بطبعه، ولا شرير بطبعه. بل هو صالح لأن يكون خيِّراً ولأن يكون شريراً؛ لذلك يعطينا الرسول المثل في البيئة الأولى للإنسان، البيئة الأولى أبواه، يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، إذاً فهو مخلوق على الفطرة صالح، ولكن البيئة تتلقفه هذه البيئة فيها بيئة قريبة، وبيئة أبعد، البيئة الأقرب هي التي حُسب الطفل عليها أمام المجتمع، ومعنى حُسب الطفل عليها، أن له أباً وأن له أماً هو محسوب عليهما في المجتمع. فإذا تحمل كل أب

وكل أم قطاعه من بنوته. . . استطاع المجتمع أن يتكون من قطاعات ناجحة متماثلة واستطاع المربي أن يجد من عاطفته ما يملؤه إخلاصاً ومحبة؛ ليزود ذلك الوليد، أحب الفطرة السليمة الصالحة للخير وللشر إلى ما يحب.

ولذلك نجد أن كل رجل في الحياة يخطؤه أمله فيها، يحب دائماً أن يتحقق أمله في ابنه، وأنك لا تستطيع أن توجد من المجتمع قلوباً تعطف كل العطف على طفل ليس بابن لواحد منهما، من الممكن أن توجد هناك أطفال بلا أسر، ولكن لو علمنا أنك لا تستطيع أن توجد في المجتمع قلباً لوليد هو قلب أم أو قلب أب، فاعلم أن هذه البيئة المأمونة طبيعياً ونفسياً وعاطفياً يمكنها أن تشكل وليدها ليتحقق فيه الأمل الذي فات أبويه.

إذاً هنا مصب التكليف، وما دام قد وجد مصب التكاليف، فله حده. هذا الحد هو الحلم، ما الحلم؟ إنه اكتمال الرجولة في الإنسان، واكتمال الرجولة معناه أن التكليف من اللَّه لا يأتي إلا إذا اكتمل التكوين الإنساني، اكتمالاً تشهد به غريزة جنسية هي الوسيلة لاستبقاء الحياة في غيره، لأن اللَّه لو كلف قبل أن توجد هذه الغريزة في النفس الإنسانية، كان التعاقد الإيماني تعاقداً ناقصاً، وكيف يكون تعاقداً ناقصاً؟ لأنه لو تعاقد، وهو لا يعلم من

أمر غريزته المجنونة شيئاً، فسيطرأ على التعاقد أمر يخل بالتعاقد.

يقول تعاقدت قبل أن توجد هذه الغريزة المجنونة شاء اللَّه أن يكون تعاقد التكليف بعد وجود هذه الغريزة؛ حتى يقبل الإنسان على التكليف بكل مقومات إنسانيته، ولا يطرأ عليه شيء جديد بعد ذلك.

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخلق، خلقهم وأمدهم بمقومات ذلك الخلق، أي بما يستبقي لهم ضرورية الحياة، ثم ترك لنشاطهم في الحياة ترف هذه الحياة؛ ففرق بين تحقيق الضرورة وبين تحقيق الترف: فالضرورة في الحياة هي الأقوات التي تخرج من الأرض، وتسقيها أمطار السماء وتمدها الشمس.

حين نقول تربية الشباب، يجب أن نقول علاج الشباب، لأن هناك فارقاً بين التربية التي تقي من الآفات، والعلاج الذي يواجه الآفات، فإذا ما كان الشباب فيه آفات، فاعلم أن مرحلة من مراحل حياته قد مرت عليه دون أن يربى، وحينئذٍ لا تقول أربيه، ولكن تقول أعالجه، وهنا تأتي المشقة. لماذا؟

لأن الشباب ما دام بلغ الأشد، فإن بلوغ الأشد يطلب الشعور بالذاتية، والشعور بالذاتية هي ما يشقى به الكثير

من الأباء، وتشقى به كثير من الأمهات، ويشقى به المجتمع، لأن الذاتية حين تحب أن تستقل قبل استكمال عناصر الاستقلال، فذلك هو الفساد، يظل الواحد منا يوجه وليده إلى أن يبلغ سناً معيناً، ثم يسمع منه معارضة لرأيه ساعة أن تسمع المعارضة للرأي، والتصميم على هذا الرأي، فاعلم أن الذاتية أوشكت أن تتفتح وأن تنفجر، ولكن أهو مأمون على هذه الذاتية، ولكن حين يفوت الأوان على المرحلة الأولى هي مرحلة التربية، والمرحلة الثانية هي مرحلة التأديب، إن أعطيت له الذاتية، كما يحب فقد خارت المسألة، واستطاع هو أن يحدد أموره لا على وفق المصلحة التي تراها البيئة العليا ممثلة في المعلمين، أو ممثلة في الأسرة، ممثلة في الأبوين.

الفرق بين تعليم العلوم وتعليم القيم

هناك فارق في قضية الحياة بين علم يبلغك الانتفاع بأسرار الحياة لتحقيق متعك وشهواتك، وعلم يطلب منك أن تحدد شهواتك، ولذلك كان علم القيم من أشق أنواع العلوم، ويشكو المربون منه، ويقول قوم إنه فشل. تتهمونه بالفشل لماذا لا تقيسه بغيره من العلوم، فالذي يتعلم علماً من العلوم الحية من علوم الحياة تعينه على تحقيق شهواته، ولكن علم القيم يحول بينه وبين تحقيق شهواته، فإن لم تتركز فيه القيم، قبل أن توجد فيه استكمالات الذاتية، أصبح لمجال التكليف، مجال تبريري، ومعنى المجال التبريري أن أي قيمة تحول دون شهوات الإنسان، يحاول الإنسان أن يتملص من هذه القيم؛ لأنه لا يريد ما يحد حريته، ولا يريد أن يقف أمام رغباته.

والقيم كلها إنما جاءت لتقف أمام الرغبات، وتقف أمام

الشهوات ومن هذا يقال: إن التعليم الديني أو تعليم القيم فاشل، نقول له لا؛ لأن تعليم غير القيم لا يحتاج منك إلا أن تدخل القضية العلمية في ذهن الطالب، وهو بعد ذلك سيحرص عليها؛ لأنها ستسعده في حياته، ولكن علم القيم لا يكتفي بأن يطلب من الطالب أن يفهم القضية القيمية، بل مطلوب منه أن يأخذ سلوكه على وفق هذه القضية القيمية، وحينئذٍ يقال إن التعليم فشل، وليس العلم في ذاته هو الذي فشل، ولذلك يجب أن نتنبه إلى أنه قبل أن توجد الذاتية المستقلة للشباب الذي بلغ أشده، يجب أن تكون القيم قد استقرت، واستقرار القيم لا يعني أنها قضايا تلقينية، نلقنها للطالب ليحفظها فإذا ما جاء الامتحان، واستقبل الأسئلة فيها تقيأ على ورقة الإجابة، ولا يتأثر سلوكه بشيء منها. : إن قضية القيم لا تبلغ حظها من السمو، إلا إذا طبعت سلوك المربي على مقتضى هذه القيم، ولا يمكن أن يطبع سلوك المربي على مقتضى ما تتطلبه القيم، إلا حين يرى أمرين:

الأمر الأول: أن يرى سلوكاً يؤصل القيم، والسلوك الذي يؤصل القيم هو ما يراه في مجتمعه القريب أو في الأقرب، وبعد ذلك تأتي القيم النظرية، أو القضية العلمية... فمتى انسجمت القضية العلمية مع القضية

السلوكية التي يراها الناشئ استقر في نفسه أن الكلمة هنا مربوطة بالسلوك هناك، وأنه لا انفصال أبداً بين سلوك يسلك في المجتمع بحركة الحياة، وبين كلمة قيمة تقال، والذي يعوز شبابنا، إننا لم نتداركهم في مرحلة التربية، أو في مرحلة التأديب فأعلمناهم هوان أمر القيم، وهوان أمر القيم أول آفة تصيب المجتمع، لماذا؟.

لأن الإنسان منا حين يرى ابنه أو تلميذه قد قصر في واجب من واجباته أنبه وأدبه ونهره. ولكنه إن رآه في شيء من القيم إن لم يفعله ولم يتعرض له... فإنه يمسه مساً خفيفاً غير متأصل بروح، فالأب الذي تقول له الأم إن الولد تغيب عن المدرسة يعاقبه عقاباً صارماً، وقد يقطع عنه مصروفه وقد يعامله معاملة تشعره بأنه أذنب ذنباً يجب أن يؤدب عليه، ولكن إذا ما نمى إلى علم الأب شيئاً يتعلق بالقيم، فربما استهان بهذا الأمر أو كثيراً ما لا يسأل عن هذا الأمر، ونقول هل ذهب الولد إلى المدرسة؟ استيقظ مبكراً؟ أذاكر دروسه؟! أأعد واجبه، أأستمع إلى المدرس الخاص؟، ولا نسأل عن شيء آخر يتعلق بالقيم: هل أجاب داعي اللَّه حين سمع، هل سمى حين أكل، هل حمد اللَّه حين فرغ؟ هل ذكر اللَّه على لسانه وباله، كل شيء من هذا لا يهم ولي الأمر ولا ولية الأمر، وقد لا

يهم المنطقة الأبعد من هذا، لذلك ينشأ الطفل مدركاً أن أمر القيم أمر ثانوي بحت، لذلك نجد أن البيئات التي أحاطها اللَّه برعاية أبوين صالحين، ينشئان أبناءهما تنشئة خلقية دينية مقومة بالقيم، نجد أن هؤلاء هم الذين حصنوا ضد آفات المجتمع، وحصنوا ضد انحرافات الشباب، وإلا فما الذي يبقي لنا مثل هذا الشباب الذي يتحمس لقضايا دينية، تحمساً قد يبلغ الورع، وقد يبلغ التعنت في كثير من الأشياء، اللهم أنه ثمة بيئات استطاعت أن توجد في نفس الطفل قضايا قيمية كانت محل الرعاية، وكانت محل العناية. لا أقول فوق متطلبات مادة الحياة، ولكن أقول مع متطلبات مادة الحياة. والسلوك هو الذي يطبع قضايا القيم.

ولذلك نجد اللَّه سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن القرآن، يتحدث عنه أنه رحمة، وحينما يتحدث عن الرسول يتحدث عنه أنه رحمة، ولكن الرحمة في القرآن، هي رحمة النص الشامل لقضايا القيم، والنص الشامل لقضايا القيم لا يغني شيئاً، ما لم يتمثل هذا النص في سلوك، ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ كما قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ (خُلُقُهُ القرآن) أي إنه طبع سلوكه، كما تتطلبه القيم الموجودة في القرآن، إذاً فالقرآن رحمة؛

لأنه منهج الخير، والرسول رحمة لأنه السلوك الذي يمثل الخير واقعاً مرئياً، لا قضية مسموعة، والمرئي دائماً يأخذ من النفس فوق ما يأخذه الأمر المسموع، فأنت تسمع الإذاعة ولكنك تشهد التليفزيون، ولكنك تشهد الواقع الذي أخرج عن التليفزيون، فتجد لذلك تأثيراً، ولذلك تأثيراً أشد، وهذا تأثيره فوق الأشد، إذاً فالرحمة في القرآن رحمة منهج، والرحمة في الرسول رحمة سلوك.

ولذلك يقول اللَّه تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

يعني لا تقل إن القرآن كلفني بمنهج فوق مستواي؛ لأن الرسول فسر ذلك المنهج سلوكاً وواقعاً، وصحابته فسروه سلوكاً وواقعاً، إذاً فقضايا القيم في القرآن لم يطلب اللَّه بها تكليف النفس فوق ما تستطيع، ولكنه طلب من النفس ما تستطيعه بدليل أن بشراً استطاعوا بتوفيق اللَّه، وهداية المنهج، أن يسلكوا ذلك السلوك؛ فكان السلوك تطبيقاً واقعياً لمقتضيات هذه القيم من المنهج.

والآفة في التربية أننا نوقت لإدراكات الطفل توقيتات وهي ليست كذلك، فالطفل كما قلنا منذ تؤدي أذنه وظيفتها، ومنذ تؤدي عيناه وظيفتهما، يلتقط من المجتمع... يلتقط حركات حياته، والتقاط حركات

الحياة هو الذي يترسب في نفسه، ولذلك إذا استمرت الإلتقاطات على مرأى واحد ومنظر واحد، أثر ذلك في نفس الطفل وربما حاكاه فإن كان أبوه فلاحاً حاكاه فيما يراه، وإن كان ضابطاً حاكاه فيما يراه، وإن كان سائقاً حاكاه فيما يراه، أي الصور المكررة أمامه المرئية، التي تطبع ذلك السلوك.

آفاتنا أننا نجد الناشئين يسمعون قيماً ولكنهم يرون في السلوك الواقعي ما ينافي هذه القيم. وحسب الطالب؛ أن يرى عدم إخلاص الكلمة من مدرِّسه. وحسب الطالب أن يرى إهمال الأستاذ في بعض واجباته وقضاء الوقت دون مدلول هذا الوقت، يأخذ هذه الصورة في نفسه، فيعلم أن الكلمة شيء، والسلوك الواقعي شيء آخر، كذلك ينظر إلى حركة أمه، إلى حركة أبيه، وإلى حركة أخوته إن كانوا أكبر منه، ولذلك يحكي اللَّه هذا التداخل الجيلي، أي الأجيال في قوله:

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

ما دام رزقكم بنين وحفدة، يبقى مرتبة الجد له أبناء وله أحفاد، حينئذٍ تتداخل الأجيال.

ومعنى تداخل الأجيال أن يقع بصر الطفل على شيء يتمثل في ورع الجد، واتزان حركاته ووفرة تجربته، ويرى

أيضاً نشاط أبيه في الحياة، ويرى أيضاً من إخوته الكبار ما يضع له نموذجاً، ويضع له مثلاً، يحاول هو أن يحتذيها ليتكون منه ذلك المزيج الذي تحتاجه الحياة من حركة تتمثل في نشاط الوالد والوالدة، ومن وقار ومن ورع وسكون واتزان يتمثل في حركة الجد. هنا حين تتداخل الأجيال، يصبح الإنسان سوي التكوين، فإذا ما فاتنا أن نربي، وفاتنا أن نؤدب، فقد صعبنا المسألة تصعيباً يحتاج منا، لا إلى أن نوجه الشباب علاجاً، ولكن نوجه من يقومون على تربية الشباب، أسرة ومجتمعاً، ودولة، وإعلاماً، كل ذلك، لأن المؤشرات الأولى كانت تنحصر في الأبوين، وتنحصر في البيئة القريبة للإنسان، ولكن المؤثرات الآن: أصبحت تدخل على الناس بيوتهم، تقرع على الناس أسماعهم. وإن لم يشاؤوا أن يسمعوا، وليت هذه المؤثرات التي تقرع علينا الآذان، وتقتحم علينا حجاب الرؤيا ليتها مأمونة. ومن هنا يتضح في ذهن الشباب شيء، اسمه إرادة التبرير... إرادة التبرير حين تطلب من الشباب أن يكف عن انحرافاته في شهوة ما، يحاول جاهداً أن يبرر لنفسه الانفلات، فلا أقل من أن يناقش في القضية من أساسها، وربما يقتضيه الأمر إلى أن ينكر قضية الدين التي تربطه بهذه القيم، لأنه لا يريد أن

يكون مخالفاً لأمر هو حق؛ فهو يريد أن يثبت أن هذا الأمر ليس بحق، ولذلك نجد الذين يحاولون التبرير لسلوكهم، بعد أن تهدأ أشرتهم في الحياة يحاولون أن يتمسحوا في القيم، ويحاول كل واحد منهم أن يتصل بمن يعوض له أمر انحرافاته في السابق، وإلا فالذي يشب على شيء من المعقول جدّاً أن يرتقي فيه، ولكنهم حين يشبون، يشبون على الانحراف، فإذا ما هدأت أشرتهم، وهدأت قوتهم، وعرامة ما يمرون به، ابتدأوا يتطلبون الاستقامة، وابتدأوا يتساءلون عن منهج القيم، إذاً فالمسألة التي كانوا بصددها حينما كانوا في أشدهم، إنما كانت مسألة تبريرية فقط.

والتبريرات هي التي تطرق جانب التدبير إلى جانب التبرير، فالتدبير شيء والتبرير شيء آخر، والتدبير هو أن يوكل إلى من يدبر تدبير الأمر من أولياته، أما المبرر: فهو الذي يريد حين يقع الأمر أن يجد له مبرراً كالذين يقولون: أنتم تقولون إن القرآن صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان الزمان قد فرض أشياء وأنتم تقولون بصلاحية القرآن لكل زمان ومكان؛ فوجب أن يتسع القرآن لما جاء به الزمان وما جاء به المكان، نقول له: إنك أردت أن تقلب القضية، وإلا كان الزمان والمكان هما المشرعان، بحيث

إذا فسد الزمان وتطلب ظاهرة من ظواهر الحياة؟؟ قلت: إن على القرآن أن يوافق هذا، نقول له: لا إن القرآن إنما جاء ليرفع الناس من مفروضات الزمان وظواهر المكان إلى متطلبات السماء، والحق سبحانه وتعالى لا يكلف إلا بما تصلح به الحياة كلها، ولكنك تريد التبرير فقط لفترة واحدة من الزمن، ولا تريد التدبير لأمور كل الزمن. فإن انقلاب شباب، حسبما طلبته شهواتهم وألحت عليه عراماتهم إنما هو جناية على قطاع آخر، هذه الجناية على القطاع الآخر، يجب أن تكون في حساب المبرر، وإن لم تكن في حساب المدبر... فسيضطر من بررت له أن يكون معتمداً عليه فيما بعد ذلك، لأن التكليف لا ينظر إلى تقييد الحرية، إلا بمقدار ما ينظر إلى أن تقييد الحرية لك قد قوبل بتقييد الحرية للآخرين، فإن أردت أن تكون حراً في حركة حياتك فاجعل الآخرين غيرك يكونون أحراراً في متطلبات حركة حياتهم. حين يكون الأمر كذلك تخسر أنت أيها الفرد أم تكسب.

إذاً فالآفة أننا نريد تبريراً، ولا نريد تدبيراً، والتدبير إنما هو النظر إلى القضية، بصرف النظر عن متعلقاتها الزمانية ومتعلقاتها المكانية، وبدل أن تقول اخرج قضية القيم إلى مطلوب الزمان ومطلوب المكان إلى مطلوب القيم إلى

مطلوب الزمان ومطلوب المكان، تقول له: لا أخرج مطلوب الزمان ومطلوب المكان إلى مطلوب القيم، لأنها كما قلنا ونقول دائماً أمور ليست نسبية، وإنما هي أمور ثابتة يشهد بها حتى الذي انحرف عن القيم.

إنني أقف عند واحدة منها إلا عند قوله:

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

مضغة مخلقة أمرها معروف؛ أي تخلقت منها الأعضاء، وتخلقت منها الجوارح والأجهزة ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ما فائدتها؟ هذه الوقفة العلمية، التي تعطينا أن القرآن عطاءَ، هذا العطاء لا ينفذ أبداً، فكلما وقف العقل البشري على سر في الكون وجده عطاء من القرآن الكريم، الإنسان منا يتعرض لبعض الآفات أو العطب في جوارحه، فإذا تعرضت أي جارحة لعطب، كان في الجسم صيدلية مجهزة بكل الموارد التي يحتاج إليها إصلاح ذلك العطب، وليس من المعقول أن يعطب عضو من الأعضاء، ثم يرمه اللَّه بأن يأخذ من الأعضاء ما يرمه، ولكنه جعل في التكوين مخلقة، وغير مخلقة أي لتقوم مقام الصيانة على حساب جهاز آخر، هذا هو معنى غير مخلقة إذا ما أصاب الآلة المصنوعة من البشر عطب نأتي لها بقطع غيار، أو نرمها إن كان العطب في جهاز من الأجهزة بشيء جديد،

ولا نأخذ من بعض الآلات ما نصلح به فساد آلة أخرى، ولكننا نأخذ جديداً لنصلح له ذلك العطب، فذلك هو قول اللَّه:

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥].

الطفولة هي المرحلة التي تسبق البلوغ، مرحلة يستقبل فيها الإنسان معلوماته من واقع الحياة حوله.

التربية المادية والتربية المعنوية

تتعلق التربية المادية بالإنسان منشئاً واجتماعياً لعناصر تكوينه، وحملاً من المرأة، وإرضاعاً له وحضانة وتربية لجسمه؛ حتى يبلغ المستوى الذي يهيئه له كماله الإنساني هذه المسألة وضع الإسلام لها أصولاً. هذه الأصول لا تولد مع الوليد ولكنها تسبق الوليد... لماذا؟ لأنها تعرضت إلى النوعين اللذين ينشأ عنهما ذلك الإنسان، قبل أن يوجد ذلك الإنسان إذاً فالنظرية الإسلامية قد احتاطت جدًّا للوليد، حتى قبل أن يوجد ذلك الوليد. إيماناً منها بأن للمورثات من النوعين الذكورة والأنوثة، أرى في تكوين ذلك الإنسان لم يولد بعد.

فجاء الإسلام... فَبدْأ مهمة التربية من اختيار النوعين الذكورة والأنوثة ليلتقيا لإيجاد أنساب وإنجاب فرد جديد.

فماذا قالت النظرية الإسلامية؟

قالت النظرية الإسلامية بالتكافؤ بين النوعين، وليس معنى التكافؤ في (الغنى)، وإنما التكافؤ في (جوهر

الأشياء) لا في أعراضها... تكافؤ نفسي، تكافؤ صحي، تكافؤ خلقي، وتكافؤ قيمي، والإسلام يضع هذه المسألة نُصْب عينيه للوليد وعاءً صالحاً ينتج منه ذلك الولد، هذا الوعاء الصالح سيحمل بقانون الوراثة في نوعية... أي في أبويه صفات، وهذه الصفات التي ستكون محور التربية فيما بعد.

التربية لا يمكن أن يصلح لها فرد واحد ولا جهة واحدة، فللمادة من يقوم عليها وللعلم والمعرفة من يقوم عليهما... والوليد لا يحضر إلى العلم إلا بعد فترة طويلة هذه الفترة الطويلة ليس معناها أنه ليس أهلاً للتربية في موضع لا تحسن بها إلا الأم، ولا يحسن فيه إلا الأب، ولا تحسن فيه إلا القرابة المحيطة به، لأن الحقائق التي تتواجد في نفس الطفل ليست من غرس المعلم فحسب، ولكنها توجد وقت أن تتفتح أذنه ليسمع وعينه ليرى وحين يرى الصفات من حوله فتنطبع في نفسه مقومات، تنطبع انطباعاً، وإن كان بطيئاً. ولذلك يحرص الإسلام على أن ينمي في الناس عاطفتهم نحو أبنائهم الصغار حتى لا يصابوا بشذوذ، ولا بانحراف، ولا بعقد، ولا بمركب نقص.

كيفية التربية

مثلاً رسول اللَّه ﷺ يجيئه رجل[١] يحب النساء فيقول له: يا رسول اللَّه أمري بالنسبة للنساء كيت وكيت، الرجل

(١) أخرج الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أأذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه فقال: أدن، فدنا منه قريباً. قال: أجلس قال: «أتحبه لأمك» قال: لا واللَّه جعلني اللَّه فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال ﷺ: «أفتحبه لابنتك» قال: لا واللَّه يا رسول اللَّه جعلني اللَّه فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال ﷺ: «أفتحبه لأختك» قال: لا واللَّه يا رسول اللَّه جعلني اللَّه فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال ﷺ: «أفتحبه لعمتك» قال: لا واللَّه جعلني اللَّه فداءك قال ﷺ: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال ﷺ: «أفتحبه لخالتك» قال: لا واللَّه جعلني اللَّه فداءك فقال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده ﷺ عليه ثم قال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

صادق أمام نفسه، لأن الرسول طبيب وليس من العيب أن يجاهر المريض أمام الطبيب بدائه، لأن إخفاء دائه لا يشفيه. ولكن المجاهرة بدائه تعين الطبيب على تشخيص مرضه وقرب العلاج بالنسبة له، فيقول الرسول: «يا أخا العرب أتحب ذلك لأمك؟»، جاء له بأبغض شيء يكره أن يرى الإنسان أمه منحرفة مع منحرف. فاقشعر بدن الرجل قال: لا. قال له: «أتحب ذلك لزوجك؟». قال: لا، «أتحب ذلك لابنتك؟» قال: لا، قال: «كذلك الناس، يا أخا العرب، لا يحبون ذلك لأمهاتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لبناتهم».

قال الرجل: فواللَّه ما همت نفسي بمعصية من ذلك النوع، إلا ذكرت أن يفعل بأمي أو بزوجتي أو بابنتي، فامتنع.

إذاً فالرسول ﷺ جاء له إلى تبشيع المسألة من أقرب طريق يتصل به وبكرامته وبعواطفه وبمكانته وبمقامه، فإذا ما أراد أن يفعل ذلك تذكر ما يمكن أن يُفعل به، ذلك هو أمر المربي، وبعد ذلك يأتي دور أساسي في نقل حصيلة التجارب الإنسانية إلى ذهن المربي، لأن المربي لا يمكن أن يأخذ تجارب الحياة من هذه التجارب موصولة دائماً بمجربين كفء. فهو لا يبتدئ ليجرب أفضلية الحياة. فمن

ذلك ينقل له التجربة نقلاً أميناً صادقاً. إنه العلم. إذاً العلم هو وسيلة التربية، ولكن العلم حين يربي يحارب جهالة. ودوره في محاربة الأمية أقل خطراً من دوره في محاربة الجهالة، ولعل السطحيين في معرفة كنه الألفاظ يظنون أن الجهالة ألا تعلم. وهي والأمية سواء. لا! الجهالة شيء والأمية شيء آخر. الأمية ألا يعلم الإنسان نسبة ما، فيقال له أمي يعني كما ولد من بطن أمه، كما قال اللَّه:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾[النحل: ٧٨].

ثم ذكر وسائل العلم والسمع والبصر والفؤاد. أذن فالأمية لا تعلم نسبة من النسب، أو قضية من القضايا، أو حقيقة من الحقائق، ولكن الجهالة علاج غير ذلك، الجهالة أن تعرف نسبة خطأ هنا يكون علاج الجهالة أقسى من علاج الأمية، لأن علاج الجهالة يتطلب مجهودين، المجهود الأول أنك تزيح من نفسه ما أدرك من خطأ، ثم تقرر في نفسه المقابل وهو الحق... إذاً فهناك عمليتان تربويتان عقليتان، ولكن الأمية تكتفي بأن تعطي له الحقيقة: لأن ليس عنده نسبة أبداً، ولذلك حينما تكلموا عن العلم، تكلموا عما يقابل العلم.

ما العلم؟

العلم أن تدرك نسبة، وهذه النسبة واقعة تجزم بها

وعليها دليلها. إذاً فعناصر العلم ثلاثة: نسبة يجزم بها من علمها، ويجزم بها مع كونها واقعة، ويستطيع أن يدلل عليها، ذلك هو العلم فإذا كانت هناك نسبة ويجزم بها من علمها وهي واقعة ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليها فذلك هو التقليد.

الطفل الصغير يردد كما ردد أبوه ويعلمه أبوه عقيدة (اللَّه أحد) فيجزم «أن اللَّه أحد» لأن أباه الذي يثق فيه قال (اللَّه أحد) تلك نسبة، وهذه النسبة مجزوم بها وهي واقعة في الوقائع، ولكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليها فذلك شيء اسمه التقليد. إذاً فالتقليد أن نعلم نسبة والنسبة مجزوم بها. وهي واقعة في الخارج ولكن لا نملك عليها الدليل.

الذي يسأل الفقيه سؤالاً عن صوم أو سؤالاً عن زكاة، وبعد ذلك يأخذ من العالم الموثوق به الحكم ما دام موثوقاً به. كعالم أخذ القضية وجزم بها وسلمها وهي واقعة. ولكن إذا قال له قائل دلل عليها لا يستطيع أن يدلل، فهو مقلد؛ لأنه يقول: قال العالم الفلاني ذلك، هذا هو الدليل.

إذاً فإذا كان العلم نسبة واقعة ومجزوم بها. وواقعة وعليها دليل ذلك هو العلم في قمته، فإذا لم يكن عليها

دليل فذلك هو التقليد. فإذا كانت النسبة المعلومة مجزوماً بها، وليست واقعة فإن ذلك هو الجهل، فالجهل إذاً علم نسبة مع جزم بها، ولكنها مخالفة للواقع أن نقول الأرض مبسوطة ومسطوحة، ويجزم بها الذي لا يمكن أن تقنعه بأن الأرض كرة أو شبه كرة، نسبة مجزوم بها ولكنها غير واقعة، فإلى أن تخرج من نفسه القضية الأولى حتى تثبت القضية الثانية... تكون محتاجاً لمجهود.

الإنسانية معنى واسع لأن بعض الناس مؤمنون، والبعض كافرون، فيعطي الإنسان معنى الإنسانية، ومعنى الإنسانية أن يرد الناس جميعاً إلى أصل واحد فلا تمييز لأصلك على أصلي. نحن جميعاً إلى أصل واحد، نحن جميعاً من أبوين، ونحن جميعاً من آدم، وآدم من تراب، وبعد ذلك يقول الحق:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وبعد ذلك يأتي الحديث ليحدد وطن كل رجل، فيقول: «خير الناس أنفعهم للناس». فكلما اتسعت دائرة الخيرية كان ذلك هو الخير، وكلما ضاقت دائرة الخيرية كان ذلك دون الخير، وكلما لم توجد للخيرية ولا نقطة كان ذلك هو الشر. ولذلك... نجد أن أوطان الناس

تحدد دائماً على قدر هممهم فنجد مثلاً رجلاً لا وطن له ولا نفسه، فهو عالة لا يهمه أمر نفسه مطلقاً، ورجل وطنه نفسه. الأول لا وطن له فهو عالة، والثاني وطنه نفسه؛ فهو أناني يحب كل شيء لنفسه، ولا يرى إلا نفسه لأحد، ورجل وطنه أسرته هذا (رجيل) ما زال صغيراً، ورجل وطنه أمته، ورجل وطنه الإنسانية. كذلك فلسفة الرجل.

لماذا نتعلم ونتعب؟

حين يطبع النشء على هذه الحقيقة تكون له اجتماعية في الحياة، وتكون له إنسانية واسعة، ولكن منهج الإسلام لا يكتفي بهذا، لماذا؟ لأنه لا يريد أن يعيشه في هذه الحياة الضيقة، لكنه يريده موصولاً بجهة أخرى، هذه الجهة الأخرى يجب أن يعلم المربي أنت تتعب لتتعلم لماذا؟ سؤال يطرح على المتعلم تتعلم خمس عشرة سنة لماذا؟ قال لأرفه حياتي وأعيش سعيداً بقية عمري، إذاً فالذي يتعب ساعة ولو أراح نفسه ساعة لكانت الصفقة غير رابحة، إنما يتعب نفسه ساعة ليريح نفسه يوماً، ويتعب نفسه أسبوعاً ليريح نفسه شهراً. ويتعب نفسه شهراً ليريح نفسه عاماً، ويتعب نفسه عشرين سنة ليريح نفسه بقية العمر قل له بعد ذلك ما شئت أن تترقى، ألا تتعب في حياتك كلها تعب عمل، حتى تأخذ زمناً أوسع وزمنا أخلد.

إذاً فقد ربطته بطموحه هذا الطموح، ينتقل به نقلة أخرى إلى عالم آخر، أخلد من عالمه الذي يعيش فيه،

وقد استدرجه أنه تعب كذا، ليرتاح كذا، فقل له: ألا تتعب من عهد التكاليف إلى نهاية عمرك، حتى ترفه حياتك، التي لا نهاية لها والتي لا حد لها.

الطموح في الدين:

إذاً فالنقلة الطموحة إنما هي في الدين، والنقلة الرجعية إنما هي في غير الدين التي تقصر مهمة الإنسان على هذه الحياة، بعد ذلك نقول:

الدين هو التقدمي الذي يطمح لحياة بعد هذه الحياة حياة أفضل.

أي إن المبدأ الذي يجعل الإنسان نهاية هذه الدنيا؟ أي المبدأين هو المتخلف: الذي جعل للإنسان أمداً أطول من حياته، أم الذي جعل أمد الإنسان هو ذلك الأمد!! وكيف يكون ذلك؟ إنه يكون بربط المربي دائماً بربه وبمنهج دينه وربه كيف مربطه؟ لا بد أن ننظم حياته تنظيماً يستغرق كل حركة حياته، بحيث لا تفوت حركة من حركات حياته، إلا وهي موصولة بربه، حين يكون كذلك يظل دائماً موصولاً باللَّه، ويكون عمله دائماً، وفي باله اللَّه، فلا يقبل على عمل إلا إذا كان موافقاً لمنهج اللَّه، وإلا إذا كان فيه خير لنفسه، إذا كان فيه خير للمجتمع، يجب أن يدرس المسلم كيف يكون يقظاً اليقظة التي تجعله يتنبه إلى

الشيء، في فائدة هذا الشيء للإسلام، وفيه وجهة نظر، فلا يترك القضية تمر هكذا دون أن يشرح بغيرته الإسلامية وحميته الإيمانية موقف الإسلام منها، حتى يكون إعجاب التلميذ بما وفد إليه من مبتدئ الغرب، مصحوباً بشيء أعجب منه فيستقر في ذهنه من قيم دينية أرفع من مبتكرات هذه العقول.

ارتباط العلوم الإنسانية بالمنهجية السماوية

إذن الذي يدرس التاريخ مثلاً حين يقرأ في التوراة الفرنسية أنها هي التي حددت وأعلنت حقوق الإنسان الذين قالوا هذه المسألة معذورون؛ لأنهم بالتأكيد لم يدرسوا الإسلام، ولم يعرفوه. وإما قد درسوه، وتعمدوا أن يقولوا ذلك ليغطوا على أسبقية الإسلام، بهذا نقول لهم... لا: الثورة الفرنسية حدثت متى؟ بعد القرآن بزمن كبير؛ ولكن القرآن أعطى ذلك الحق في سنة كذا؛ أي من ١٤ قرناً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

والرسول في آخر[١] وصية أوصاها للمؤمنين ـ ووصية أخر العمر هي أنفس الوصايا، فالرجل لا يوصي ولده،

(١) يقصد وصاياه في خطبة الوداع، التي اشتملت على ما يسعد الإنسانية في الحياتين.

حين يموت إلا بخير الذخائر ـ يقول: «كل مسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

أنت إذاً عندما تسمع أن هؤلاء هكذا دل على أنهم ليسوا مؤمنين بديننا، وأنهم لا يعرفون، وإما أن يكونوا قد عرفوا، وهم يكتمون ذلك.

وبعد ذلك مثلاً حين تأتي في نظريات العلم المختلفة في الكيمياء، وفي الطبيعة، وفي الفلك، وفي الطب، وفي الصيدلة، وفي أي شيء حين تدرس شيئاً من المسائل، ويعجب بها النشء المربى يجب أن تلفته إلى أن هذا القانون ليس من صنع الغرب، ولكن الغرب أخذ البذرة الإسلامية التي وضعها فلان قال فيها كذا وكذا، ولكن ضعف المسلمين وعدم إقبالهم على مبادئ دينهم كما كانوا أولاً، هو الذي جعل الغرب يتخذ هذه البذرة، ويأخذ هذا الزرع ليقطف فقط الثمرة، وفرق بين من قطف الثمرة وبين من وضع البذرة، فأنت مثلاً حين تتكلم له في الجغرافيا مثلاً فعندما يعي تقول له: يا أخي! البيروني مثلاً هو أول من أبطل نظرية اليونان وبطليموس في أن الأرض مركزاً للكون، حينما تدرس مثلاً نظرية الجاذبية، يقولون له نيوتن هو الذي اخترعها فيقال له إن البيروني له البحث الأول فيها، إذاً حينما تقول له ذلك؟

فيثق بعقليات إيمانك، ويثق بعقليات إسلامك، ويثق بأن ذلك ليس شيئاً تصدق به هؤلاء، وإنما إن فعلوا شيئاً فقد ردوا الجميل للعرب، وبعد ذلك إذا انبهر بنظرية من النظريات، ثم جاء ولم يجدها في إسلامه سيشك في تخلف إسلامك وقرآنك، وغير ذلك إن الإسلام ليس من عند اللَّه، وأنه لا يطابق ذلك العصر... إذاً نقول به يا أخي إن النظريات الحديثة والقوانين العملية، التي انْتُهِيَ إليها بعد الملاحظة وبعد التجربة وبعد النظرية، حين أصبحت حقيقة علمية مسها قرآنك وكتابك، ومسها رسولك مساً يناسب عقلية العصر، فهي لم تفاجئ هذا العصر، حين تقول له ذلك بعد أن كان معجباً بما استُورد له، فيعجب جداً بأصل دينه وبمناهج قرآنه، ويعجب جداً بأسبقية دينه لهذه الأشياء.

والأسبقية لا تعني أن يعلمنا العلم ولكن تعني أنه يمس حقيقة العلم، لأن العلم ما هو إلا حقائق فإذا كان القرآن أو السنة قد مست هذه الحقائق على أنها أمر موجود... فإن ذلك ليس معناه أن تقول إن باباً لتعليم الكيمياء وباباً لتعليم الجغرافيا لا يكفي أن يمس حقيقة في الكون، وبعد أن يمس حقيقة في الكون، وتأتي حقائق الكون التجريبية لتطبيقها لنا.

وقفة عقلية :

تلك إذاً، وقفة عقلية يجب أن يقفها العقل، ولكن أيستطيع العقل؟ أيستطيع أن يدرك من هذه القوة اسمها؟ أيستطيع أن يدرك من هذه القوة صفاتها؟ أيستطيع أن يدرك بعقله متطلبات هذه القوة؟ وما الذي ينتظره حين يخالفها؟

لا شيء من ذلك من عمل العقل أبداً، وإنما عمل العقل أن ينتهي إلى تعقل قوة أعلى منه، سخرت له ما هو أقوى منه هذه القوة، يكفي منها أن تتعقلها أيها الإنسان، أما أن تتصورها على أي كيفية هي، فذلك ليس من مهمة العقل.

إذاً... فالقوة هي التي تعبر عن نفسها أسماء لها، وصفات بها، ومهمة ترتبط أنت بواسطتها ونهاية تصبو إليها، وجزاء يترتب على امتثالك وعلى مخالفتك، كل ذلك ليس من عمل العقل، ولذلك كان هذا هو الرد المنطقي، العقل الذي يرد على كل ألوهية مدعاة لشمس أو لقمر أو لشجر أو لحجر، أو أي شيء من ذلك، لأن الرد الوحيد تقول للذين يعبدون الشمس: وما المنهج الذي قالت لكم الشمس اعبدوني به؟... فلن تجد جواباً، والذي يطيعها ماذا أعدت له الشمس؟... لا تجد جواباً، والذي يعصيها، ماذا أعدت له الشمس؟ لا تجد جواباً، إلٰه

بغير منهج تعبده، وإلٰه بغير غاية تصير إليه، لا يصح أن يكون إلهاً أبداً. . . إذاً لا بد من التبليغ عن ذلك الإلٰه.

هذا التبليغ، لا يقوم به أي فرد عادي، وإنما يقوم به إنسان مهيأ من البشر، يتلقى من ملك مهيأ من الملائكة، فلا هو ملك مطلق، ولكن ملك مُصْطفَى، ولا هو إنسان مطلق، ولكن إنسان مصطفى، فالمصطفى من الملائكة يعطي للمصطفى من البشر، وبذلك تتسلسل سلسلة الانتقاء من القوة المطبقة إلى القوة النسبية.

ونحن في حياتنا نباشر هذه المهمات مباشرة واقعية موضوعية فمثلاً إذا أراد الإنسان منا أن يصنع في بيته شيئاً يحفظ به أصل الضوء، ولا يعطي له قوة إشعاع الضوء ـ حين ينام ليلاً (ما يسمونه بالوناسة أو السهاري). . . ماذا يصنع؟ أيأخذ للوناسة أو السهاري من التيار العام من البيت؟. . . لا! بل أن يأتي المهندس الفني ليقول: أنك لو أخذت لهذه القوة الضعيفة من التيار القوي لتفتتت، ولم تتحمل قوة التيار، إذاً، ما الحل؟

الحل إذاً لا بد أن تأخذ من الأقوى لتعطي الأضعف (التي يسمونها محول: أي ترانسفورمر) إذاً فلا يمكن لإنسان أن يتلقى عن ربه مباشرة أبداً، إذاً فلا بد من تلك الوسائط: مصطفى من البشر يتلقى من مصطفى من

الملائكة والمصطفى من الملائكة يتلقى من اللَّه:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

ولو أن الفلاسفة والمفكرين اقتنعوا بتعقل القوة لما وجد إشكال فكري في الحياة، ولكن ما أفسد للفلاسفة منهجهم أنهم انتقلوا من منطق التعقل إلى منطق التصور، وفي ذلك كان الفساد: أرادوا أن يتصوروا القوة فعجزوا، فتخبطوا من عقل أول إلى عقل ثان إلى نفس كلية، تصور هذه القوة لا يمكن أن تصورات البشر لا بد أن تخضع لقانون مرائيهم في الحياة، فإذا تصوروا هذه القوة بمقياس صور البصر... فلا بد أن ينزلوا بهذه المطلقة إلى عالم متصور في عالمهم.

التعقل والتصور

إذاً. . . فقد اختلفنا في منطق التصور، ولو اكتفينا بالتعقل لاتحدنا، ولو أنهم اقتنعوا بالتعقل وتركوا للقوة أن تعلن عن نفسها، لكفينا ذلك النزاع الفكري الذي لم يأت بطائل طول مدارس الحياة الفلسفية، فلم تتفق فيه مدرسة مع مدرسة بل لم يتفق فيه تلاميذ مدرسة واحدة!!

وقد ضربت سابقاً مثلاً ليوضح ذلك، فقلت: إننا في حجرة كهذه الحجرة مغلقة، ثم سمعنا جرساً، بهذا الجرس نتعقل جميعاً أن طارقاً بالباب، ذلك هو منطق التعقل؛ فإذا ما أردنا أن نصور الطارق المحجوب عنا بالباب اختلفنا، فمن قائل إنه الوزير، ومن قائل: إنه وكيله، ومن قائل: إنه مدير الجامعة، ومن قائل: إنه العميد، ومن قائل: إنه طويل، ومن قائل: إنه قصير، ومن قائل: إنه رجل، ومن قائل: إنه امرأة. . . إلخ.

إذاً فقد اختلفنا في منطق التصور، ولو اكتفينا بالتعقل لاتحدنا، فما الذي ينبي عن التصور؟ هو صاحب الشأن نفسه، يقول: اسمي كذا ومطلوبي كذا، فقد حسم الأمر،

إذاً فالتصور للقوة المطلقة وراء ذلك الكون، وهي التي خلقته بقدرتها وأمدته بقيوميتها أمر موكول إليها، ولذلك كانت أسماؤه تعالى توقيفية، وليس للعقل فيها مجال أبداً. وإذا وصفته بشيء فيه مدح وفيه قوة، ولكن لم يبلغنا عنه، فلا يصح إن نصفه بها أبداً.

والفلاسفة لم يكفهم دليل من عملهم هم فالكون المنظور المحس كان حقلاً لعقول فلسفية، فقصروا عملهم وتجاربهم في الكون المحس المهندس، هندسة رائعة مبنية على نظام دقيق، فبحثوا فيما وراء المادة.

ما الذي قال لعقولهم إن وراء المادة شيئاً يجب أن يبحث عنه، لا بد أن فطرة نفسية وشيئاً حازماً قد أقنعتهم بوجود شيء وراء المادة، وإلا فما الذي جعلهم يضحون بشيء من حياتهم ليبحثوا فيما وراء المادة؟ وما وراء أمور غير منظورة، يكفينا منهم أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين أن يبحثوا فيها وراء المادة، سواء نجحوا في معرفة ذلك، أو لم ينجحوا، فالدليل على وجود شيء وراء هذه المادة، إنما هو الفطرة والعقل.

إذاً... يجب أن يرهف الإنسان سمعه لتلقي البلاغ عن هذه القوة. كانت الرسل إذاً أمراً طبيعياً، كان يجب أن يستدعي من البشر، لا أن يهبط إلى البشر فينكرونه، إنسان

يقول لك اللغز الذي في حياتك، إنك تقدر وتعجز وتعرف وتجهل وتقهر وتختار، هذا اللغز لا بد أن يحل، فإذا ما جاء لك إنسان ليقول لك: أنا سأحل لك اللغز الذي فكرت فيه أتنصرف عمن يريد أن يحل لك اللغز أم تقبل عليه؟ إذاً كان يجب أن يكون الإقبال على منهج الرسل طبيعياً، ولذلك استعجلت القوم الذين ليس في رؤوسهم أشياء تناقض المنهج فآمنوا به، أما الذين يعلمون أنهم سيضارون بذلك المنهج لأنهم عاشوا آلهة، وعاشوا سادة وعاشوا ولهم جاه وأن ذلك المنهج سيسلبهم إياه، فهم الذين وقفوا أمام ذلك المنهج، أما القوم الذين لا مطامع لهم، فقد استقبلوا الرسل استقبالاً إيمانياً كما يجب أن يستقبله جميع البشر.

إذا كنا نعلل تعليلات عقلية... فأيضاً توجد في النفس البشرية أمور نفسية، لو لم يؤمن هو باللَّه، كيف كان يتلقاها؟

كيف كان يقابلها؟ تأتي الحياة بظروف فوق أسباب الإنسان وظروف تعجز أسبابه عن دفعها بمصائب وكوارث وأهوال، ماذا يكون موقفه؟ لو لم يستند بإيمانه إلى أن وراءه قوة هي التي خلقت الأسباب، وتستطيع أن تجعل له مخرجاً دون هذه الأسباب، فلا تجعل لليأس من الحياة

سبيلاً إلى قلبك. وكل ما يصيبك فيه خير لك. إذا ستستقبل الحياة بكل طاقتك وبكل إمكانياتك، وبكل نفس لا يسرها ما أتاها اللَّه ولا يحزنها ما ذهب به اللَّه من يدها:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

إنسان أسلم نفسه لمن يعلم أنه إنما يجزي الأشياء للخير عليه.

الرصيد الإيماني ضرورة للإنسان

كيف يمكن لمن بلا رصيد إيماني أن يستقبل هموم الحياة؟ والهموم والمصائب في الحياة تترتب ترتيباً منطقياً، هذا الترتيب المنطقي أوصله الإمام علي ـ رضوان اللَّه عليه ـ إلى منطقة ليست محسة فتدفع وليست ملموسة فيتقى منها، وإنما هي شيء يتخلل على الإنسان ذات نفسه، بحيث لا يستطيع أن يراه ليدفعه، وذلك هو هم الإنسان في هذه الحياة.

كل عدو من الأعداء من الممكن أن توجد قوة لتدفع ذلك العدو، إلا باستثناء واحد هو ذلك الهم، فالذي لا إيمان له كيف يواجه همومه التي لا يستطيع دفع أسبابها لو لم يكن مؤمناً باللَّه.

يقول الإمام علي في سلسلة موجودات ذلك الكون، ليصل إلى أن الإيمان لو لم تكن له غاية وفائدة، إلا أن يطرد الهم وأسبابه عن النفس، ثقة من النفس بأن اللَّه الذي خلقه حكيم فلا يجري عليه إلا ما فيه الخير له لكفى

ولما سئل عن أشد جنود اللَّه (ماذا قال الإمام علي)؟ قال الإمام علي في الجواب عن ذلك قولاً يدل على أنه استقرأ ما في الكون من أجناس، ثم رتبها لفكره وعقله ترتيباً يعطي القوي ثم يعطي الأقوى من القوي. ثم يجعل الأقوى قويّاً بالنسبة لأقوى منه، يأتي بعده إلى أن يسلسلها إلى مصاعب المتاعب المعنوية في الهم... سئل عن أشد جنود اللَّه، فقال: «أشد جنود اللَّه عشرة: الجبال الرواسي، والحديد يقطع الجبال، والنار تذيب الحديد ـ أي فهي أقوى ـ والماء يطفئ النار، أي فهو أقوى والسحاب يحمل الماء، أي فهو أقوى، والريح يقطع السحاب ويمضي لحاجته فهو أقوى وابن آدم يغلب الريح فيتستر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته والسكر يغلب ابن آدم ـ يفقده توازنه، والنوم يغلب السكر ـ والهم يغلب النوم. فأشد جنود اللَّه الهم، لو لم يكن في الإيمان، إلا أنه يدفع عن الإنسان هموم الحياة، لكفى بذلك فائدة. والإنسان بكل نعمه وإمكانياته وقدراته، إن كان في نعيم فهو يُهَمُّ لأمرين إما أن يفارق هو هذا النعيم، وإما أن يفارقه ذلك النعيم، أنا أقول شيئاً واحداً أن يذهب عنهم النعيم، أو أن يذهبوا هم عن النعيم.

إذاً فميزان الإيمان إنما جاء ليصون الإنسان حتى من

هذا ـ لماذا؟ لأن الإنسان بعاداته إذا كان طفلاً صغيراً لم يزل في حضانة أبويه ليتعهداه ويربياه لا يحمل هما لأسباب الحياة أبداً ـ فنقول له إذا كان من له أب لا يحمل هم الحياة أبداً ـ فمن له رب يستحي على عرضه ـ وأيضاً، فالإيمان باللَّه ضرورة إرتضائية. ومعنى الضرورة الإرتضائية أنك إذا نظرت إلى الجنس الذي بعدك مباشرة، أي الذي لا تتميز عنه إلا بالفكر وهو الحيوان ـ وجدت للحيوان غرائز تحكم تصرفاته لاستبقاء الحياة؛ ولذلك تجده لا يعطي هذه الغرائز إلا ما تؤدي به مهمتها، ولكن الناس دائماً بسيادتهم يظلمون الحياة، فيقولون عن شهوتهم حين تنطلق إنها شهوات بهيمية، ويجب أن ننصف الحيوان من هذه التهمة: هل فلسفة الحيوان شهوته... لو أن ذكراً جاء إلى أنثى فوجدها حاملاً، أيقترب منها؟ لا يقترب، أتمكنه هي منها؟ لا، إذاً فعمليتها الجنسية عملية لحفظ النوع فقط، غريزة وقفت عند حدها، ولكن الإنسان تفنن في هذه الغريزة تفنناً واسعاً مطلقاً، حتى أداه ذلك التفنن والعياذ باللَّه إلى الشذوذ في المأتى، فكيف نقول عنها أشياء بهيمية؟

يجب أن تقول: الحيوان يجوع كما نجوع، ويأكل كما نأكل، هات لي حيواناً وأعطه ما يأكل، ثم كف هو عن

الأكل، واحْتَلْ عليه بشتى الطرق وتحكم فيه بأقسى الوسائل ليأكل شيئاً زائداً عما أكله، لا يمكن، ولكن الإنسان تفنن في هذه.. تقول له: (واللَّه لتأكل ده فيأكلها، واللَّه لتأخذ هذه فيأخذها)، وفي غير الطعام يجد أشياء كثيرة في الأرض من نباتات وحبوب... ويجد ألواناً من الطعام فيأكل ما يصلحه ولا يأكل نوعاً أخر، ولكن الإنسان يقول: (أما أكل ده أشوفه، إيه شكله) إذاً من المنطق في غرائزه؟ إنه الإنسان ورغم أنه يجوع أشغل نفسه بهمِّ الرزق بنفسه، بهمِّ ماذا يأكل في العشاء وماذا يأكل غداً؟... اشغل نفسه لا بهَمِّ رزق نفسه، بل بهَمِّ رزق أولاده، بل بهَمِّ رزق أحفاده؟ الإنسان يصنع ذلك، والحيوان أيضاً يلد ويؤخذ وليده ويذبح على مرأى منه، أيشعر الحيوان أيضاً بألم الثكل؟ أيبكي؟ يمتنع عن الطعام والشراب؟ ولكن الإنسان يأتي منه ذلك، إذا وجد حيوان حيواناً أخر كان حظه في أن يذهب إلى ذي جاه، فيعلفه أحسن العلف، ويكسوه أحسن السروج، ويستعمله في الأغراض الشريفة العالية، وهو يستعمل في أدنى الأشياء، أيدخل عليه حقد في قلبه وغِلٌّ وحَسَدٌ؟... لا يدخل عليه شيء، لكن الإنسان يجد شراً في ذلك إذاً فمن المحتاج إلى من يعلي غرائزه؟ ليس الحيوان وإنما هو الإنسان، إذاً

فأمر ضروري وجود الإيمان نفسياً وارتضائياً. . . وجود الإيمان هو الذي ينظم هذه الغرائز يعليها، ولا يقتلعها، لأنه لو أراد الإيمان أن يقتل الغرائز لماذا خلقها اللَّه، إذاً هي لها مهمة، والإسلام لا يصنع من المؤمن مؤمناً جامد القلب بحيث ينطبع على شيء واحد، الشيء الواحد الذي يطبع عليه هو أن يسلم قيادته لمنهج خالقه.

ضرورة الأخذ بالأسباب العلمية بدعامتيها

قبل أن أتكلم عن ضرورة الأخذ بالأسباب العلمية، يجب أن نتفق على المعلوم الذي توصل إليه هذه الأسباب، وقد سبق أن قلت: إن الحق سبحانه وتعالى: (شرع لنا من التكاليف ما تختلف فيه الأهواء) ليعصمنا من صراعات هذه الأهواء، أما الأمور العلمية التي تخضع للتجربة المعملية المادية، فالكل متفق عليها، المادة صماء لا تجامل باحثاً أبداً، الغاية التي ينتهي إليها كل باحث يدخل معمله أمام المادة دون هَوًى، تلتقي مع ما يذهب إليه نظيره أيضاً إذا دخل معمله أمام المادة، وليس له هوى لأن المادة صماء لا تجامل أحداً، وإذا نظرنا إلى المسائل المادية وجدنا أن الرسول ﷺ قد وضع في ذلك حداً للمسلمين، وحداً واضحاً... وجعل نفسه مقياس هذه التجربة.

ما التجربة العلمية؟ أولاً التجربة العلمية تنشأ من ملاحظة ظاهرة في الكون. ثم لا تمر هذه الملاحظة مروراً

عابراً، بل تقف موقف التأمل، ولا تقف موقف التأمل لتستمتع فقط، بل لتنتفع، ومعنى تنتفع أن تأخذ من الظاهرة شيئاً يفيدها في تصعيد إسعاد حياتها، القرآن حينما يعرض هذه المسألة الكونية، يقول:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

إذاً: فالآيات في السموات وفي الأرض يتطلب منا اللَّه ألا ننظر إليها نظرة عابرة، فضلاً عن أن نعرض عنها، بل معنى ذلك أن نتأملها وأن نتفحصها لنهتدي بواسطتها إلى شيء يرتب حركتنا في الحياة.

تلك هي ظاهرة الملاحظة والتجربة. الأمر المادي كما قلنا لا تختلف فيه الأهواء أبداً، ومعنى لا تختلف فيه الأهواء، أن النتيجة التي ينتهي إليها تكون واحدة، وسبق أن قلنا: إنه لا توجد كهرباء روسي وكهرباء أمريكي، ولا توجد كيمياء بريطاني وكيمياء ألماني. كل ما انتهى إليه من القضايا العلمية التجريبية الناشئة من المعمل، أمور متفق عليها، الرسول ﷺ الذي يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

يدل على أن تشريعنا يجيء به الرسول بلاغاً من اللَّه،

إذا كان بالنص، أو بياناً لمراد اللَّه، أو تفصيلاً لما أجمل اللَّه. وقد يكون للرسول ﷺ تشريع في ذاته، يدخل تحت:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

جاء الرسول والعرب يلقحون النخل. ومعنى تلقيح النخل القيام بعملية الإخصاب من طلح الذكور إلى وعاء الأنوثة، فقال:

ما تصنعون؟ قالوا: كذا وكذا.

قال: لو لم تفعلوا لصلح، فسمعوا قول الرسول، فلما جاء الموسم، لم يجدوا النخل قد أتى أكله كما يأتي به كل عام، فقالوا للرسول هذا، انظروا إلى الرسول ﷺ كيف جعل التجربة في ذاته هو فقال: أنتم أبصر أو أعرف بشؤون دنياكم، أي الأمور التجريبية المعملية، التي لا تجامل، أنا فيما تختلف فيه الأهواء أحدد مطلوب اللَّه فيما تتفق عليه الأهواء لهوى واحد، أما أمور المادة وما تستنتجونه من التجربة المعملية، فأنتم أبصر بها وأعرف ولو كان الآمر لكم محمد بن عبد اللَّه.

إذاً: فذلك في الإسلام فتح للعقول على أسرار هذا الكون، لنفيد منها الفائدة التي تعطينا الحركة المثمرة بأقل مجهود وأكبر عائد، وبذلك تميز الإسلام، لم يضطهد

عالماً في معمله، ولم يضطهد صاحب نظرية من النظريات التي توصل إليها باحث في ظواهر هذا الكون.

وإذا نظرنا إلى المبتكرات أو المخترعات أو المكتشفات التي تسعد الدنيا لوجدناها نتيجة ملاحظة الظاهرة في الكون. كيف استفدنا بالبخار؟ استفدنا لأن ملاحظ الظاهرة قد رأى غطاء القدر يرتفع، فلما بحث عن سبب الارتفاع وجد ضغط البخار يرفع الغطاء، فعلم أن البخار قوة من الممكن أن نستفيد منها في الحركة.

إذاً فكل قضية علمية مؤكدة إنما هي نتيجة ظاهرة من ظواهر الكون، يريد العلم منا، ويريد الإسلام منا أن نتبين، وأن نستنبط منها ما يسعدنا، وليس في ذلك ما يناقض الدين، بل في ذلك ما يؤيد قضية الدين لأنه، إذا كان الإسلام قد جاء ليسيطر منهج على الوجود كله، فليس من مصلحة الإسلام أن نترك الكافرين باللَّه يأخذون أسرار كون اللَّه منا، ونحن المؤمنون باللَّه نقف ونحن فقراء من هذه الأسرار.

إذاً فالإسلام يقف من العلم التجريبي المعملي موقف الريادة أولاً. وموقف القيادة وهو الذي وضع الأسس السليمة للعلم التجريبي، الذي نشأت عنه كل مظاهر الحضارة التي نراها الآن.

العلم تثبيت للإيمان

إن العلم يكفي للأسباب التي حرم اللَّه بها الأشياء. ويجب أن تكون ذريعة لتثبيت إيمانك بقوة الحكيم وقدرته وحكمته فيما لم تعرف من أحكام.

إذا علة إقبال المكلف على أي أمر من الأمور هو أمر اللَّه به، وبعد ذلك، الأمور أنواع: نوع للبشر فيه تقنينات ونوع ليس للبشر فيه تقنينات، فالنوع الذي ليس للبشر فيه تقنينات، نسميها أموراً تعبدية، والنوع الذي للبشر فيه تقنينات كالأمور التي تحقق مصالح الفرد ومصالح الأسرة ومصالح المجتمع، ومصالح التقاضي.

كل هذه المصالح لك حرية البحث والنقد في أن تأتي بأي تقنين من القرآن (تقنين سماوي) ثم تقارنه بأي تقنين. ومهما علا التقنين البشري فإنه يقنن على مدى علم المقنن، وبذلك قد تخطؤه أشياء، وبعد ذلك يضطر أن يبدل... يضطر حين التطبيق أن يعرف خطأه فيعيد، ولكن حين يكون المقنن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي لا تخفى عليه خافية، فإنه يصل إلى منتهى الكمال فيما يريد.

لذلك إذا جئت بأي قانون قرأت تطوره والتعديلات التي طرأت عليه من المقننين البشريين وجدت أن أي تقنين يرتقي يقترب من وجهة نظر الإسلام، فما دام الأمر كذلك فإنه على المسلم أن يستقبل قضية الأحكام وقضية إسلامه لمنهج ربه بتوثيق ما صدر عن اللَّه، ويكون عمله أن يقول: «أقال اللَّه ذلك؟ أقال رسوله ذلك أم لم يقله؟» فقط. وبعد ذلك يقبل على الأمر، فإذا كان أمراً عبادياً فلا يحاول أن يفهم علته أولاً، لأن فهم العلة أولاً يفسد عبادته، فلو أنك أقنعت واحداً بعلة مسألة من المسائل، لو أن وثنياً جاء ليقنعك بعلة أمر من الأمور أتفعله أم لا؟ تفعله لماذا، لأنك اقتنعت بحكمة هذا الأمر، فلو أنه كان أمر يتطلب أن تقتنع بحكمته... فإن ذلك يفسد معنى العبودية، إنما العبودية أن تأخذ الأمر من اللَّه بعد أن وثقته وأن تثق تمام الثقة، في أن ذلك أحكام ما يوجه في هذا الموضوع.

الفكر:

فإذا أردنا بعد ذلك أن نتكلم عن الفكر نقول: ما مهمة الفكر؟ وما هذا الفكر أولاً؟ الفكر هو الخاصة التي امتاز بها الإنسان، ونسأل: هل الفكر عمل فيما لا بديل له؟ تقول: لا، لا عمل للفكر في أمر لا بديل له، إذا للفكر عمله في اختيار البديل.

تكون هناك حاجات متعددة، ثم يأتي العقل ليقول: هذا نفعله لأنه أنفع من هذا بدليل كذا وبدليل كذا. إذا كان هناك مكان أنا أريد أن أذهب إليه، وليس هناك إلا طريق واحد فلا عمل للفكر فيه. أما إذا كان له طريقان أو ثلاثة، يمكن للفكر أن يتدخل فيه، إذا، فمهمة الفكر الاختيار بين البدائل. وبهذا تمتاز أنت عن الحيوان. إن الذي يقرر البدائل، هو الفكر بدليل أن الفكر عندما يتعطل بجنون، فليس موضعاً للتكليف، لأن آلة الاختيار بين البدائل لا وجود لها.

إذا لم يكن قد نضج بعد الرشد، فلا تكليف، وإذا كان هناك إكراه من قوى أعلى، يسقط التكليف والمسؤولية، إذا، فعدم تكليف المجنون وعدم تكليف من لم يبلغ الرشد وعدم محاسبة المكره، يدل على أنه لا يمكن أن نحاسب الإنسان على تصرف اختبار بديلاً فيه، إلا إذا استوفى هذه الأشياء، أن يكون غير مجنون، وأن يكون ناضجاً، أي بعد سن الرشد، وألا توجد سلطة تكرهه على فعل يفسد اختيار البدائل، إذاً فسنعود مرة أخرى للحيوان، وهو الجنس الذي من أي حيوان مثله فينفعل لذلك الأثر الإيذائي كيف ينفعل الحيوان انفعالاً واحداً للأثر... يرفس أو يعض أو يستعمل مخالبه، ليس لديه بدائل،

لماذا؟ لأنه ليس له فكر يختار به البدائل، وليست عنده قيم تفهمه بأن الغريزة تهدف إلى صون الحياة، فتصريفه واحد أمام أي انفعال، ولكن الإنسان... يأتي إنسان فيصفعني... ذلك أثر يوجب في نفسي انفعالاً.

وهذا الانفعال، ماذا يحدث؟

يصح جداً أن أرفع يدي وأصفعه بمثل ما صفعني، ويصح أيضاً أن أضربه بقدمي، ويصح أن أضربه بشكل أخف من ضربته ويصح أن أنفث عن غيظي بعملية نزوعية، بأن اشتمه أو أسبه، ويصح أن أقول: لا أدري فلعل ظرفاً نفسياً أتعبه، فأنا أتحمله، لعل اللَّه يوجد لي عندما يتغير ظرفي النفسي من يتحملني. وإذا كنا نحن الاثنين عبدين للَّه ـ كلانا من صنعه ـ وذهب أحدنا إلى البيت ليجد أن أحداً من أبنائه قد أساء لأخر، فمع من يكون قلبه؟

مع الظالم أم مع المظلوم؟

مع المظلوم.

إذا يمكنك القول: بأن الإساءة إليك قد تجلب لك عطف اللَّه، فأسامحك وأحسن إليك؛ فهي «معلل» التعليلات النفسية.

القرآن والحقائق العلمية

حين بحثوا مثلاً في مصدر الحس، كانوا يقولون إنه المخ، وبعد ذلك قالوا النخاع الشوكي لأجل الحركة العكسية، وبعد ذلك انتهى إلى أن للإحساس أعصاباً لها مستقبلات مثبتة في الجلد، فنقول له لقد مسها القرآن، مسها على أنها حقيقة واقعة، والعلم لا يخلق له الحقائق، وإنما يكتشف الحقيقة الموجودة فيقول له القرآن حينما تكلم عن الأخرى، قال ماذا؟

قال:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

لماذا؟

ما علة التبديل؟

﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

إذاً فالإذاقة موطنها الجلد، والحس موطنه الجلد وما تحت الجلد، أذن القرآن قد تكلم عن الحقيقة العلمية، حقيقة مستمرة ثابتة، صحيح أنه لم يعلمنا أنه تعمل تجربة

للمخ وتجربة للنخاع الشوكي، وأعرف واقعة ملموسة عرفها لإنسان، أو لم يعرفها، ولكن الوسيلة إلى معرفتها ذلك هو النشاط الذهني للإنسان.

بعد ذلك حينما جاءت الحرب العالمية مثلا نقول للمربي: الحرب عندما تقدمت ألمانيا اخترعت تحطيم الجوهر الفرد، وما الذي يبهر الناس الآن؟ إنها القوة الذرية أو الانشطار النووي، وذلك بعمل أسطوانتين لتحطيم جوهر الفرد أي الجزء الذي لا يتجزأ، أي الذرة، ابتدأ البحث الذري فظن المتعصبون على الدين مثلاً أن ذلك يهدد الدين، خاصة الإسلام لأنه لا يهمهم إلا الإسلام هو القوة المخيفة، فقالوا حينما جاء الإسلام، وضرب أقل شيء في المثل ضربه بالذرة، فقال:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إذا فقد ضرب المثل بأقل شيء، وقد تبينت الحقيقة بعد تحطيم الجوهر الفرد أو الذرة، أن هناك شيئاً أقل من الذرة، إذا الذي يعمل أقل من الذرة ماذا يكون حكمه في القرآن؛ فظنوا أن ذلك يهدد الإسلام، لأنه جعل الذرة أصغر ما في الوجود، ولكنه أخذ الظاهر، ولم يستوعب آي القرآن.

لأنك لو استوعبت آي القرآن لوجدت آية القرآن قد تنبأت بهذه الحقيقة. . . فعند القرآن رصيده حتى بعد أن يفتت المفتت من الذرة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٣].

أصغر من الذرة وهو الجزء الذي يسمى الإلكترون والبروتون، وكلمة أصغر فيها الرصيد الإلٰهي العالم بالغيب كله؟ لأن أصغر مرحلة تأتي بعد صغير.

يوجد صغير ويوجد أصغر، فهنا ذرة، فلا يأتي أصغر إلا بعد أن يوجد صغير إذاً، فالذرة صغير وأصغر.

«العالم الآن باختراعاته في منطقة صغير»، ولكن القرآن قال أصغر، إذا فعنده مرحلة احتياطية للمحاولات التي تحاول أن تفتت المفتت من الذرة، لو أن قرآنه مس هذه الأشياء، لأن الذي قال القرآن هو الذي قال هذه الحقائق. حينما يأتي ليدرس مثلاً الجغرافيا، وبعد ذلك يتعرض لنظرية كروية الأرض. ثم يتعرض لنظرية دورة الأرض، ثم يأتي ذلك في علم آخر علم الطبيعة ونزول المطر بعد ذلك، لو أن المربي كان على بصر بدينه، وعلى معرفة

بقرآنه، ومعطيات ذلك القرآن، كان إذا ما رأى النظرية العلمية أو الحقيقة العلمية تطرح على المربي يعجب بها ويسر.

إذا نقول له انظر إلى دينك، انظر إلى قرآنك كيف تعرض لهذه المسألة تعرضاً يعطي لكل العقول غذاءها في أي عصر من العصور، فقل له ماذا يقول؟ انتهى إلى أن الأرض كرة، نعم، ولكن كانت تلك بادرة عقلية زمان، وبعد ذلك صار أمراً مشهدياً بمعنى أنهم عندما صعدوا للفضاء، وصوروا الأرض، قالوا إنها كرة أو شبه كرة.

وبعد ذلك أمر مشهدي محس، فالأمر مستدل عليه بالأدلة. ظهور أعالي الأشياء قبل أسفلها، مثلاً كانوا يقولون: إن الإنسان إذا سار أمام دائماً ينتهي من حيث بدأ.

تجربة والاس في البحر الخاصة بالأعمدة، كل هذا كانوا يستدلون به ولكن المسألة أصبحت مشهداً بأن القوم الذين صوروها رأوها بالفعل بعيونهم، صوروا صورة الكرة.

القرآن لم يحضر كتاب ثقافة. القرآن جاء كتاب كون يمس حقائق الكون على أنها واقعة، ولكنه كان يحترم العقول المعاصرة فيقول:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ [الحجر: ١٩].

فيحضر العقل الذي لم يكن يعرف الحقيقة، يقول مددناها يعني بسطناها، إذا نقول له مددناها بسطناها على أي شكل، ما البسط؟ يأخذ أشكالاً متعددة، وأنت إذا جئت إلى قطعة من القماش، ولففتها على مكعب يبقى كعبت القماش، على مربع يبقى ربعت القماش، على متوازي جعلت القماش متوازيا، على كرة يبقى كورت القماش، إذا لما الحق يقول على آيات الليل والنهار التي تظهر على الأرض:

﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [الزمر: ٥].

إذا ما دام تكوير... فيكون المكور عليه هو الأرض، يبقى لازم تكون كرة وما معنى الكورة؟ معناها انحناء سطح، وانحناء السطح كيف يتأثر؟

حين يمتد شعاع البصر يرى شيئاً ثم ينحني الشيء من مسار البصر إلى ما لا يرى، ومن الذي عنده قدرة امتداد لشعاع بصره حتى يدرك سطح الأرض إلى أن ينحني سطح الأرض؟

إذا لا يمكن بالعين المجردة أن ترى هذا الانحناء، ولكن عندما يقول اللَّه سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ [الحجر: ١٩].

الخطاب لمن؟... ألإنسان بخصوصه أم لكل الناس؟ لكل الناس فإذا كانت الأرض مسطوحة إذاً عندما تكون مسطوحة ستبقى لها حافة، ولها نهاية، والذي يقف هنا لا يجد أرضاً أمامه، وإنما يجد حالة وتصبح مددناها غير واقعة له...

إذا لا تمتد لكل واقف على بقعة، إلا إذا كانت مكورة، كل ما تمشي تكون أمامك، كل ما تمشي تكون أمامك، ممدودة ولو كانت على غير كرة، لا تكون مددناها يبقى مددناها الذي أخذها على دليل أنها مسطوحة، أصبحت دليلاً على أنها مكورة. أيضاً نحن حين علمونا معرفة مقياس محيط أي دائرة، علمونا كيف أن نأتي بخيط على المسطرة تعرف المحيط.

وعلمونا طريقة أخرى أن نحضر الفرجار، ونقسم المحيط إلى مستطيلات صغيرة مللي أو ٢ مللي، ونعد عددها ونضربه في ٢ مللي، يطلع المحيط، ولكن حين أخذت بالفرجار مستطيلاً على المحيط أخذت ٢ مللي... هذه مستطيلة؟. مستطيلة لكن إذا كانت الدائرة محيطها يكبر... إذا فالمستطيل... كلما كبر المحيط يبقى المستطيل المكون للمحيط، هذا كل ما تبرزه الدائرة، يبقى

المستطيل أطول بالنسبة لدائرة الأرض مستطيلها الذي يكون قطاع منها هذا قدره كم؟ يبقى أكثر من مستوى البصر ومن مرماه.

إذاً... فلا يمكن أن ترى رأى العين، إذا... فالتلميذ أو المربي حينما يسمع هذا، يعجب بدينه ويعجب بقرآنه الذي مس هذه الحقائق، وهل كان لمحمد ﷺ معرفة هذه الحقائق، أكان يجازف محمد ليضع هذه الحقائق وبعد ذلك يأتي الكون بحقائق أخرى فتكذبه وينصرف الناس عن دينه!!... لا... إن محمداً لن يأت بشيء، ولكن القرآن آيات اللَّه، والكون آية اللَّه، وما دامت هذه آيات اللَّه وذلك آية اللَّه فلا بد أن تنطبق. محمد يقولها وهو واثق من انطباقها في المستقبل على ما يقوله القرآن؛ لأنه ليس من عنده ولكنه من عند خالق هذا الكون وقائل ذلك القرآن؛ فإذا تجاوزنا هذه المسألة إلى الدوران[1]. وهذه معقدة جداً لأن الناس لا يرون الأرض وهي دائرة بهم. لذلك لا يزال كثير من الناس الآن لا يصدقون هذه الحكاية نقول له لماذا؟ يقول لأنني أراها ثابتة، نقول له واللَّه عجيب! كيف تعرف حركة المتحرك؟ لا تعرف أن هذا الشيء متحرك إلا إذا قسته إلى ثابت.

(١) يقصد دوران الأرض.

الإنسان والسفينة تسير، كيف يعرف أنها سائرة؟ إذا رأى الجبل أمامه وبعد ذلك رأى الجبل ثابت على الشاطئ الآخر، بعد أن كان بينه وبينه خط عمودي أصبح بينه وبينه خط مائل، وبعد ذلك كل ما تبتعد السفينة الخط المائل يزيد كل ما يبتعد الخط المائل يزيد، يبقى لأنني عرفت نفسي إني متحرك، عندما قست بثابت، ولكن إذا كانت الأرض متحركة بما عليها، فما الثابت الذي يمكن أن تقيس به حركة الأرض، لا يمكن، هب أننا في غرفة والغرفة مقفلة، وبعد ذلك هذه الغرفة موضوعة هندسياً على شكل آلة تدور كالرحى، إذا كانت الغرفة مقفلة، ونحن جالسين. . . فإننا لا ندرك هذه الحركة فمواقعنا بالنسبة لأنفسنا لا تتغير، هذا أمامي وهذا بجانبي على الشمال، وهذا بجانبي على اليمين، ولكن إذا فتحنا نافذة في الغرفة ورأينا شجرة، ورأينا الشجرة تبدو مرة ثم تختفي مرة أخرى عرفنا أننا نتحرك. إذاً لا نعرف حركة المتحرك إلا إذا قيس إلى ثابت.

فما دامت الأرض تتحرك بما عليها، فلا يمكن أن نعرف الحركة، ولكن ثبت أنها متحركة، اللَّه!!! يتعرض القرآن لمثل هذه القضية التي تخالف العقول الفطرية التي عاصرت القرآن؛ فيأتي الحق سبحانه وتعالى يمسها مسًّا؛

بحيث لا يخدش العقل غير المعاصر، ولكنه يعطي العقل غير المعاصر زاده أيضاً، فأتى الحق سبحانه وتعالى ويمر على المسائل مر الكرام، ويقول جعل فيها رواسي أن تميد بكم:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

إذاً ألقى في الأرض رواسي جبال، خوفاً من أن تميد (الميدان) (بفتح الميم والياء) وهو الاضطراب؛ لأن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت، ما الذي كان يعرضها أن تميد أو تتحرك، ما دامت حتى لا تميد؛ فهي مخلوقة على هيئة الحركة والجبال مجعولة مثقلات فيها، ولكن كيف عرفت فيأتي نيوتن بقوانين الحركة... القانون الثاني مثلاً (الجسم المتماثل في الكثافة حول محور لا يميد، ولا يضطرب إذا دار حول هذا المحور) ويأتي (كل جسم متحرك لا يتغير لا في اتجاهه ولا في مقداره) إلا بما يتغير من هذا الاتجاه والمقدار من قوة أخرى. اللَّه!! إذاً الأرض تدور بشكل منتظم؛ بدليل الزمان نرتبه على هذه الدورة فيكون مضبوطاً إذاً. فمعنى ذلك يعطينا نظريتين.

١ ـ النظرية الأولى:

إن كتلة الأرض في أي قطاع من قطاعاتها مساوية للأخر، يعني إن جئت وبنيت عمارة ٢٠ مليون طن...

فإنك... إن وجدت ثقلاً في مكان فتأتي بتعويض هذا الثقل؛ فيخفف شيئاً من هنا، ويثقل شيئاً من هناك، وتسمى بالقوة الطاردة، لو لم تكن كذلك حين دارت، وأي شيء يزيد عن الكثافة يطرح خارجاً إذا أتيت بشيء كالكرة، ووضعت عليه شيئاً آخر مخالفاً لكثافته وتديره يندفع للخارج كأن العمائر وناطحات السحاب، لو لم تكن هذه القضية ثابتة... كانت طارت من على الأرض!!! إذاً هذه المسألة مسها اللَّه سبحانه وتعالى حين قال:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

جاء في آية أخرى فقال:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

اللَّه!! إذا مر الجبال كمر السحاب هل السحاب يتحرك بذاته؟؟

لا يتحرك إلا بالرياح. إذا حركة الجبال تابعة أيضاً وما دامت ثابتة وراسية كالأوتاد في الأرض، إذا لا بد أن تكون حركة الجبال تابعة لحركة الأرض، فيحضر واحد ويقول هذا يوم القيامة نقول له افهم النص هكذا:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وهل يوم القيامة يكون حسباناً أم يقيناً؟ بل يقال تحسبها

بظن أنها على هذه الحالة، إذا يوم القيامة يكون يقيناً، هل يوم القيامة امتنان بصنعة اللَّه إن الامتنان بصنعة اللَّه إنما يأتي من أجل الاعتبار في الإيمان.

يقول لك سياق الآية يدل على أنه يوم القيامة كيف هذا؟ يقول يا أخي الآية تقول:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٣ ـ ٨٦].

نقول له تكلم عن القيامة، ثم نقلنا من القيامة إلى أمور دنيوية: لأن كون الليل نسكن فيه والنهار مبصر هذه آية، ولكن الحق أراد في آية أن يأتي لنا بالهول الذي يأتي يوم القيامة، الهول الذي يأتي يوم القيامة يقول لك تنبه له جداً، وبعد ذلك يأتيك إلى آية إيمانية، وبعد ذلك قال:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

وبعد ذلك يقول من جاء مقره في الدنيا أم الآخرة؟ من جاء بالحسنة فله خير منها في الدنيا أم الآخرة؟ من جاء بالحسنة فله خير منها هذا مقره الدنيا؛ إذاً فالحق ينقل فيها

صورة الهول المفزع يوم القيامة، وبعد ذلك ينقلنا إلى آية إيمانية، لأنه إذا تخيل الإنسان الأمر المفزع، فيلقى الإيمان باللَّه ضرورة لغوية، اللغة ظاهرة إجتماعية مطلوب للإنسان، الإنسان لأنه في مجتمع مدني بطبعه، يلزم له لغة يتفاهم بها، لو كان وحده لما احتاج إلى لغة، كما يخطر على باله يفعله، إنما مع غيره فلا بد أن ينقل أفكار الآخرين إذا لا بد من وجود لغة، هذه اللغة ما مهمتها أن نتفاهم بها، وهل نستطيع أن نتفاهم باللغة إلا إذا كان المتكلم والمخاطب متفقين على مبنى تدل عليه الألفاظ، إذاً... لا بد من ذلك... فإن كان المتكلم يعلم ألفاظاً والسامع المخاطب لا يعلم هذه الألفاظ فلن تؤتي المخاطبة بنتيجة، إذا كانا لا يعلمان فلمن يستطيع المتكلم أن يتكلم، إذاً فاللغة ضرورة اجتماعية، واللغة كما نعلم بنت المحاكاة، ما تسمعه الأذن ينطق به فإذا جئت بإنسان إنجليزي في بيئة عربية هو طفل رضيع يصبح يتكلم العربية، إذاً فاللغة ليست سلالة، ليست سليقة، اللغة المطلقة سليقة في الإنسان إنما بذاتها ـ يتعلم أي لغة ما دامت للغة ألفاظاً يعبر بها كل قوم عن أغراضهم... فلا بد من أن يتفق المتكلم والمخاطب على معاني الألفاظ التي تدور بينهما؛ فإذا لم تفهم مباني الألفاظ... تصبح

اللغة لا مهمة لها، وأن تحدث اللغة في ذاتها. . .

يعني قد يأتي إنسان فيتكلم بالعربية الإنسان يتكلم العربية، وليس معنى أنه يتكلم العربية أن كل لفظ يستطيع أن يقوله، وكل لفظ يستطيع السامع أن يفهمه، لا بل لا بد من معرفة المعنى قبل النطق للفظ أولاً، وبعد سماعه ثانياً، فقد يأتي لفظ هو عربي، ولكنه لا يفهم شيئاً، أنتم تعلمون قديماً ما تقصه علينا كتب الأدب من أن هناك شخصاً اسمه أبو علقمة النحوي. . . متقعر في اللغة، يتكلم بالألفاظ الغريبة؛ فمن الذي رباه حتى ينزل إلى مستويات الناس في التفاهم؟ رباه خادم له. أتعبه تقعر (أبي علقمة)، وكان لا يفهم عنه كثيراً من الألفاظ، فماذا كان منه؟ كان منه أن أبا علقمة استيقظ ليلة ثم نادى الغلام فقال: يا «غلام» أما هذه فقد فهمها الغلام «أصعقت العتاريف؟» مسألة لم يفهمها الخادم، ولكنه أراد أن يلقن أبا علقمة درساً يمنعه من هذا التقعر، ولا سيما بالنسبة إلى خادم لا يعرف شيئاً، فلما قال له: أصعقت العتاريف؟ قال له: «زقفليم» فتعجب أبو علقمة (. . . لأول مرة يتعجب أبو علقمة من لفظ لغوي؟؟) فقال: يا غلام. . . وما «زقفليم» فسرَّ الغلام لأنه أعجز أبا علقمة فقال له: (ما أصعقت العتاريف)؟ فقال له: أنا

أردت يا بني أَصاحت الديكةُ؟ قال: وأنا أردت لم تصح».

هذا كان ابتلاء أدبياً لأبي علقمة، ولكن شخصاً أخر أراد أن يبتليه ابتلاء أهم من ذلك في عافيته وهي أعز شيء لديه وفي صحته، فقد دخل على طبيب يقال له «أعين»... وهو يشكي علة، فلما ذهب إلى الطبيب لم ينس تقعره... والطبيب محدود الثقافة اللغوية، فقال له: «ما بك»... قال: أكلت من لحوم هذه الجوزاء. فقسأت منها قسأة أصباتني منه وجع، من الوابلة إلى داية العنق، ولم يزل ينمُ حتى خالط الحلب، وألمت منه الشراشيف، وقف الطبيب متعجباً، فقال له: أعد، فأعاد: فماذا فعل الطبيب؟ إياه (عاياه أي: أتى له ألفاظاً لا مدلولات لها في اللغة، لكي يدوخ فيها أبو علقمة: لأنه لو أتى بلفظ مستعمل في اللغة فقد يكون أبو علقمة يعرفه) فقال: «ده مش عايز إلا إختراع ألفاظ مالهاش مدلول، فقال له: أمسك القلم واكتب الوصفة (الروشتة): «خذ حرقفا وشرقفا وزهرقة واغسله بماء روس واشربه بماء الماء» (قال أبو علقمة: أعد علي؛ فواللَّه ما فهمت شيئاً) قال الطبيب: «لعن اللَّه أقلنا إفهاماً لصاحبه».

فإذا اللغة بهذه المثابة حتى عندما نستوعب كل ألفاظ

اللغة ـ إذا جاء لفظ لم يسبق أن عرف معناه وقف. ما دامت اللغة، هكذا... يجب أن نستنبط أولاً: هل توجد المعاني أولاً، ثم توضع لها الألفاظ؟ أم توجد الألفاظ أولاً، ثم تخترع لها المعاني؟. قبل أن يوضع اللفظ لا بد أن يكون المعنى متضحاً في الذهن، وحين لا يوجد معنى متضح في الذهن، لا يوجد له في اللغة لفظ، هذه قضية، إذا ما دام اللفظ يسبقه المعنى: فإذا جدَّت معان لم تكن موجودة من قبل... تجتمع المجامع اللغوية لكي تقول: نضع لذلك المعنى أي شيء أي لفظ، ماذا نسمي هذا؟ المذياع، المستقبل، لأنه معنى لم يكون موجوداً، فالمعاني العدمية التي لا وجود لها، لا وجود لألفاظ تدل عليها؛ فإن وضعوا لفظاً لمعنى عدمي نبهوا عليه. وقالوا إن هذا اللفظ وضع للمعاياة ولشيء خرافي؛ أي إن معناه أنه شيء مثل ما قالوا: «الغول» فإذا كان الأمر كذلك تقول إذا كان مدلول «اللَّه» أمراً عدمياً لا وجود له. فمن أين دخل لفظ «اللَّه» على لغة الناس؟ أو من أين دخل اللفظ المقابل للفظ اللَّه في سائر لغات الناس؟ ما دامت الألفاظ لا تسبق المعاني...

إذن، فوجود تلك الألفاظ في لغات الناس يدل قطعاً على أن معانيها سبقت وجود اللغة، وأن المعنى الإيماني

في اللفظ قد وجد في لغات الناس، يدل على أن المعنى كان موجوداً، إذا هناك انسجام في أسر الألفاظ حتى المتعارضة كيف؟ كلمة «الكفر» نفسها دليل الإيمان الكلمة نفسها لفظ (الكفر) دليل على وجود الإيمان لأن الكفر ما معناه؟ . . . (الكفر) في أصل معناه (الستر)، فما هو المستور بالكفر؟ وجود هذا اللفظ يدل على أن شيئاً وجد فستر، فالستر طارئ على موجود، إذا فمعنى (كفروا) أي ستروا شيئاً كان موجوداً؛ فالكفر طارئ على الإيمان، ولذلك تجد جواباً حينما نسأل: لماذا يتعجب اللَّه في قوله:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨].

يعني: قولوا لنا على الطريقة الغريبة، التي سولت لكم أن تكفروا باللَّه هذه مسألة عجيبة، كيف كفرتم باللَّه؟ إذاً الألفاظ اللغوية تدل على أن معنى لفظ «اللَّه» ودلالته على واجب الوجود سابق على وجود هذه اللغة، إذاً فذلك يصحح أفهام الناس، الذين بحثوا في مقارنات الأديان، وهو أن الأصل في الناس أنهم غير مؤمنين باللَّه، بل عدلوا ثم يرتقون إلى التوحيد نقول لهم: الأصل أنهم حينما خلقوا أمدوا بالمنهج من اللَّه مباشرة، ثم طرأت عليهم الغفلة، ثم طرأت بعد الغفلة تأثيرات البيئة، فطرأ الكفر على ما كانوا يعملون.

اسم اللَّه على كل الألسنة

أيضاً في لغتنا نحن: (اللَّه) علم على واجب الوجود، يعني اسم اللَّه، اسم للقوة المطلقة بكل صفاتها، ووضع اسم على مسمى أمر ألفناه جميعاً، إننا نضع الأسماء للمسميات، كم وضعوا أسماء على مسميات؟؟؟... إذن فليست هذه المسألة مشكلة بالنسبة للناس، حتى أنهم يضعون الاسم صاحب المعنى الجيد على المعاني الخسيسة، يأتي واحد عنده زنجية ويسميها «قمر» هل أحد يقول له لماذا تسميها «قمر» نقلها للضد، يأتي لواحد شقي... ويسميه «سعيد» إذن فأنت حر في أن تصنع اسماً للمسميات، بعد ذلك تجد في القرآن، وهو من صميم إعجازه، القرآن استقبل الناس الإيمان به وبعضهم كابر وجادل وظل على كفره، الكافر والمجادل، أيجب أن يعجز الرسول أم يعين الرسول، وهم يعرفون وضع الأسماء للمسميات، وبعد ذلك يأتي الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فيقول في آية من كتابه:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

يعني: أعرفت أحداً أطلق اسم «اللَّه» على نفسه. لا أحد، لكن من الجائز أن محمداً استقرأ الأسماء فلم يجد أحداً من قبله سمى شيئاً «اللَّه» فما الذي كان يضمن لمحمد ﷺ أن يتجرأ كافر ملحد ليقول: «يا تحدى وأتحدى محمداً وسأضع اسم «اللَّه» على أي شيء لي ما حصل ذلك أبداً، وصل اسم اللَّه للَّه، ومعنى ذلك أن الكفار والملحدين والمعاندين لا يصنعون ذلك دليلاً قاطعاً على أنهم يطمئنون إلى وجود تلك القوة، غير واثقين مما يعبدون لرأوا فيما يعبدون حماية لهم أن ينزل اللَّه بهم شيئاً من القسوة، فتحدى القرآن ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]».

والمستدل عليه الآن، لأنه لم يوجد ذلك قبل، ولكنه أيضاً لم يوجد بعد، مع وجود المكابرين والمعاندين في وجود اللَّه، تحداه أن يطلقها فيخاف لأنه يريد أن يجعل التجربة في نفسه، ولو كان واثقاً من موقفه العقائدي لأطلق ولم يبال.

لماذا الإيمان ضرورة عقلية؟

الإيمان باللَّه ضرورة عقلية، وحين نؤمن نقول: من خلق الحياة؟... فنقول: اللَّه الذي خلق الحياة هو الذي ينظم حركة الحياة، يقول: أفعل كذا، ولا تفعل كذا...

وحين ذلك يوجد الإسلام فلا يوجد انقياد لأمر ونهي، إلا بوجود عقيدة تسبقه في أن الآمر والناهي أهْل لأن يؤتمن على أمره، وعلى النهي منه، لأنه صانع ولأنه حكيم ولأنه قادر، ولذلك يكون إسلام المسلم زمامه لتوجيهات ربه، إسلاماً لا عن عقيدة، أما إذا كان إسلاماً عن عقيدة، فهذا نفاق إذاً، فكل سلوك ظاهري لا بد أن يستند إلى عقيدة ومعنى لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد، وإن كانت لها مرحلة تناقش من جديد، فهذا ليس إيماناً، والإيمان لا يتأتى في الأمور المحسة، لا يقال: إني أؤمن بأني بينكم الآن، وأتكلم بين أيديكم لا يقال: إن هناك كأس ماء مملوءاً أمامي، ليست تلك منطقة إيمان بل منطقة حس ومشاهدة، إذاً، فمنطقة الإيمان في الأمور الغيبية، ولذلك عندما سئل رسول اللَّه ﷺ:

«ما الإيمان؟»

قال: «أن تؤمن باللَّه (غيب) وملائكته (غيب) لأن اللَّه قال: «وكتبه ورسله»».

فيأتي أحد سطحيي العلم، فيقول: لا أما الإيمان بالكتب وبالرسل فأمر حسي، لأننا نرى الكتب ونرى الرسل، ولكننا نقول: لا لأنك لم تر جبريل وهو ينزل بذلك الكتاب على رسوله... إذاً: فإيمانك بالكتاب

وبالرسول لا يزال أمراً غيبياً، وبعد ذلك تؤمن بالقضاء والقدر، وكلها أمور غيبية، إذن فمتعلقات الإيمان العقدي، أن يكون في أمر غيبي، حين تسلم زمامك العقدي، يقال: «إنك آمنت». ولذلك فعل الفعل دون عقيدة. ماذا يقال؟

يقال: إنك مسلم منافق، ولذلك حينما قالت الأعراب آمنا. ماذا قال لهم اللَّه سبحانه وتعالى:

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

أخذنا السلوك الظاهري إنما من غير رصيد عقدي، إذن فالإسلام لا بد أن توجد له ركيزة عقدية أولاً، حتى يطمئن الإنسان إلى أن هذا الأمر وهذا النهي هو أحكم مما يوجه من أمر وأحكم ما يوجهه من نهي. سواء فطنت أنا إلى حكمة فعل الأمر، أو إلى حكمة ما نهاني اللَّه عنه. أو لم ينه. لماذا لأن العبودية هي التي أسلمتني لذلك الأمر، ولذلك تجد القرآن عندما يتكلم عن هذه القضية المرحلية والإيمان ـ يقول:

«يا أيها الناس كتب عليكم الصيام».

لا يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

يعني يا من جدت عندكم خميرة الإيمان بي، واعتقدتم وآمنتم بوجودي وبقدرتي أنا أشرع لكم، فبغير رصيد الإيمان لا يشرع ويلاحظ هنا دقة العطاء في اللفظ القرآني وخصوبة الأداء في اختيار الكلمة في مقامها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

لماذا لم يقل: كتبت أو كتب اللَّه، ولكن يقول (كُتِب) وبناه للمجهول مع أنه من المعروف من الذي كتب: (اللَّه)؟ ما الصلة في أنه عدل عن ذلك اللفظ المبني للمعلوم وبناه لما لم يسم فاعله؟ هذه العلة يجب أن يلتفت إليها الذهن، لماذا؟ لأن قضية الإيمان عقد بين الخالق وبين من آمن به إذاً... فحين دخلت للإيمان باللَّه دخلت طواعية. وآمنت به. إذن... فأنت شريك في كل التزام تقنين يصدر عن ذلك الإلٰه: كان من الممكن أن لا تخضع أبداً إذاً، أنت شريك في هذه العملية، ومن اللحظة التي يقول فيها: (كتب) فأنت شريك في هذه العملية ولو لم تؤمن به لما كُتبت، يعني: إنك عندما دخلت كنت معي في هذه الكتابة، أي في إجراء صيغة العقد (وما دمت قد تعاقدت استمع مني)، ذلك لأن علة فعل المؤمن لأي حكم من الأحكام إنما هي صدور الأمر من اللَّه به، أما علة لماذا

أصدر اللَّه هذا الأمر؟ قد تطيقها العقول وقد لا تطيقها قد تعرفها وقد تجهلها.

إذا كان اللَّه قد حرم الخنزير، أكنا نؤجل هذا الحكم؟ حكم غيابي مع إيقاف التنفيذ، حتى تأتي الآلات والمعامل: ليثبت لنا أن الخنزير شيء ضار؟ لا نحن تقبلنا ذلك وحرمناه دون أن نعلم لماذا، ثقة في المحرم، هو قال ذلك، فلا بد أن هناك حكمة، سواء عرفتها أو لم أعرفها، وبعد ذلك تأتي الأيام ويأتي الارتقاء العلمي يبينون لنا المضار التي في هذه الأشياء.

قمة العبودية للَّه

وبعد ذلك، إذا أقبلت على الأمر بهذه النية تكون قد أخذت قمة العبودية للَّه، وبعد ذلك قد يطلعك اللَّه في ذات نفسك على أسرار أحكامه، وتفيض عليك إشراقات: فالذين قالوا: حكمة الصلاة كذا، وحكمة الزكاة كذا، أو حكمة الحج كذا، أو حكمة الصوم كذا، هم قوم نفذوا الأمر أولاً ثم أدركوا في نفوسهم ما يعطيه هذا الأمر من عطاءات في نفس الإنسان، فقالوا: لكذا وكذا وكذا... فرض أركان الوضوء أربعة، وهي غسل الذراعين والمضمضة والاستنشاق، فلماذا أفنى الرجل نفسه في السنة، أدرك أنه لا بد أن تكون هناك حكمة ولا شك أن الرسول يعرف خواص الماء السائل الذي لا لون له ولا رائحة، فلما يأخذه بيديه يرى أنه لا لون له، ولما يتمضمض يعرف أنه لا طعم له.

فإذا استنشق يعلم أن الماء لا رائحة له، إذاً فهو ماء صالح للوضوء، إذن فعلل الأسباب وأحكامها لا تأتي أولاً قبل أن تنفذ، ولكن نفذه. وأنا قلت سابقاً: إن الناس لا

يعاملون ربهم معاملتهم لأنفسهم، لماذا؟ لأن الإنسان عندما تكون صحته متعبة يذهب إلى الطبيب، حين يذهب إلى الطبيب توجد أولاً عملية عقلية، وهي أن يقول أولاً: إن معدتي متعبة، لأني عندما أكل أتعب. لذا... فقد حددت موضع العلة، وعلى ذلك: هل أذهب إلى طبيب جراح أم طبيب باطني؟ طبعاً أذهب إلى طبيب باطني، ومن هو الطبيب الباطني؟ أقول: واللَّه فلان متخرج من كذا وله سوابقه في كذا وفي كذا، وهذه هي عمليتي العقلية، وانتهيت منها فأسلمت زمامي للطبيب، جلس الطبيب فشخص المرض وجلس يصف الدواء، أنا لا أمسك قلماً عند كتابة أي عقار لأقول له: لن أشربه حتى تقنعني بحكمته، وإلا وجب علي أن أدرس تسع سنوات في الطب لكي يقنعني، وهكذا يحول عيادته إلى كلية الطب لكي يقنعني، وهكذا يحول عيادته إلى كلية الطب مع كل مريض، ولكن آأخذه وأبحث عنه وإذا لم أجده... فإن الصديق الوفي هو ذلك الذي يستورده لي من مكان آخر آخذه، فإذا جاء إنسان يعودني ويقول لي: لماذا تشرب هذا الدواء؟ أنا لا أدخل معه في متاهات، لا... أقول هذا الدواء عندي الكرزبة تعبانة والقناة أصابها ضيق، وأن هذا الدواء يؤدي إلى تمدد وانفتاح... إلخ.

لا أدخل معه في هذه المتاهة، وإنما أقول: إني أشربه لأن الطبيب كتبه، وبعد أن أوصاني الطبيب انتهت المسألة، ولكن أريد أن أتناقش معه، هذا يمكن إذا كنت طبيباً مثله، وبذلك تعقد (كونصلتو) وقل له: «واللَّه لقد أخطأت في كذا».

إذاً فمن الذي يناقش في الحكمة؟ الذي يناقش في الحكمة دائماً هو المساوي لمن قنن لي الحكمة. وإلى أن يوجد مساو للَّه، (يبقى) يناقش فيما قنن. إذن فالإسلام من المؤمنين للَّه هو مدلول الإسلام، وذلك معنى ليس بأحمق، وإنما بعقل ومستلزمات ومتطلبات، فإذا ما سلمنا زمامنا للَّه ليصرف حركة حياتنا كنا مسلمين حقاً.

إذاً فيجب على المربي ألا يغفل دينه عن منهج تربيته في أي مادة من المواد عليه مثلاً عندما يذكر التاريخ تاريخ قدماء المصريين يقول: يا أخي تاريخ قدماء المصريين لم يكتشف إلا بعد أن اكتشف حجر رشيد وحجر رشيد هذا هو الذي قد اكتشفه شامبليون في الحملة الفرنسية وبعد ذلك عندما حلت رموزه عرفوا ذلك التاريخ، لكن مثلاً إذا جئت للقرآن، عندما حضرنا نقرأ التاريخ، وجدنا أنه كان هناك ملوك سموهم فراعنة، وبعد هذا جاءت فترة من سموهم ملوك لا فراعنة، ثم جاءت فترة ثانية سموهم

فراعنة فالتاريخ يقول ذلك، ولذلك سموهم للملوك الرعد والهكسوس كانت هذه فترة مرت على الفراعنة.

إذاً يقول لك انظر للقرآن قبل حجر رشيد فيه ما يدل على هذه الدلائل، عندما يتكلم عن قوم فرعون والمعاصرين لعاد وثمود سماهم الفراعنة، وحينما تكلم عن القوم المعاصرين لموسى سماهم فراعنة، ولكن يوسف كان من قبل موسى حين تكلم عن ملوك مصر، لم يتكلم على أنهم فراعنة، إنما تكلم عنهم بأنهم ملوك.

اقرأ قول اللَّه تعالى:

﴿ وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ١ ـ ١٠].

أيام عاد وثمود سماهم الفراعنة وبعد ذلك في أيام موسى قال له:

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ [طه: ٤٣].

لكن في أيام يوسف لم يقل ذلك لو كانت المسألة كلاماً عن ملوك مصر، كلاماً عاماً كان سماهم كلهم فراعنة. ولكن جاء:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ ﴾ [يوسف: ٥٠].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ ﴾ [يوسف: ٤٣].

لم يقل الفراعنة إذن هذه دلالات في التاريخ، أو أنك نبهت ذهن تلميذك إلى أن القرآن قد ذكر ذلك قبل أن يكتشفوا حجر رشيد، ويحل شامبليون رموزها... إذن تعرف أن الذي تكلم بهذا القرآن هو الرب العالم بالأشياء على وفق ما تكون الأشياء.

حين لا ينفصل العلم الذي يعلمه المربون في أي فن من فنونه، أو في أي لون من ألوانه عن اللَّه. ويكون قد أدى العلم ثمرته المطلوبة منه؛ خاصة في أمة إسلامية. وبذلك يظل الإعجاب في القوم المسلمين في دينهم، غير مفتونين بما يفد عليهم من حضارة الغرب فهم يسحبون هذه الأعاجيب على غيرها من المبادئ التي تشوه دينهم، والتي تحرفه، التي تدعوهم إلى أن يتخلصوا من منهجه، ومن أسلوبه.

قيمة العلم: التطبيق

حين ذلك يجب أن يعلم المعلم أن قيمة العلم ليست فيما يعلم الإنسان بل قيمته أن يخرج العلم إلى حيز الوجود والتطبيق. تعلمك للفضيلة لا يعني فعلها كما ذهب سقراط، بل علمك بالفضيلة إن لم تفعلها تكون شهادة ضدك أكثر مما لو تجهلها. إذن فيجب أن تعلم أن العلم إنما يكون له الشرف إذا ترجم إلى تطبيق، وإن ظل علماً نظرياً فلا فائدة منه.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

العلم لا بد أن يسير إلى تطبيق عملي والتطبيق العملي هذا لا بد أن يكون في المربي الأسوة. بحيث لا يفهم المربي أن هناك علماً تحشى به الرؤوس. وهناك سلوك منفصل آخر على غير مبدأ ذلك العلم، لأنه حين تنفصل الكلمة عن السلوك تنهدر قيمة القيم وقيمة العلم. نفرض أنك تربي أولادك طيلة عمرك على نظرية: الكذب شيء ضار. والكذب صفة خسيسة، وتعلمه الصدق وفضائل

الصدق، ثم بعد ذلك جاء إنسان فطرق بابك فقلت فلولدك: قل للطارق إن أبي ليس هنا، فسوف يدرك ويتعلم أن هذا كلاماً يقال وهناك عملاً يفعل. وحين ينفصل السلوك عن الكلمة... فذلك هو الفساد المطبق، الذي لا يمكن علاجه أبداً.

فأنت حين تتعلم الصلاة والصيام وبعد ذلك يراقبك ولدك مراقبة غير مقصوده ويجلس معك والظهر أذن والعصر جاء بعده، وبعد ذلك لم ير منك أنك تقوم للصلاة علم أن هناك كلاماً يقال وأن هناك فعلاً يفعل وأن هذا لا ضرر منه، وبذلك تكون الأسوة أسوة سيئة، فإذا ما كانت الأسوة سيئة انهدمت قيمة العلم، وانهدمت قيمة المعرفة.

وأيضاً يجب على المربي أن يعلم مربأه أنني لست أعلمك إلا لأنني أتعلم، فلو لم أتعلم كل يوم لما استطعت أن أعلمك كل يوم.

وحتى لا يصيب العالم الذي يعلم شيء من الغرور فيقول الرسول ﷺ[1]: «لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنه قد علم فقد جهل».

---

(١) ينسب هذا القول إلى الإمام الشافعي، ـ رضي اللَّه عنه.

يصبح جاهلاً ولذلك يأتي إقبال[١] ويصور هذا المعنى تصويراً رائعاً جميلاً حتى يمنع عن العلماء آفاتهم وهو الغرور بما يعلمون.

قال لك إن العالم الذي يكون مغروراً بعلمه... هذا دليل على ضيق أفقه، لأنه لو كان أفقه واسعاً كان كل ما طرح في الأفق واسع، لكن الأفق ضيق عقله ضيق انحشرت فيه كذا قضية من العلم فامتلأ فقال إقبال:

قالت النفس قد علمت كثيراً قلت هذا الكثير نزر يسير
تملأ الكنز غرفة من محيط فيرى أن المحيط الكبير

حين يكون المربي على ثقة من أنه علم بعض العلم وسيعلم البعض الآخر من هنا تترقى سلسلة المعارف لأنه لو ظل كل علم على ما هو لوقف دولاب الحياة ووقفت مراحل الحياة فحين يكون المعلم والمربي يقظاً يتولى كل ملكات النفس البشرية التي أمامه بغنائها وبقوتها وكلما دمجه بالمجتمع الذي يعيش فيه دمجاً على منهجيته الذي يؤمن به فذلك هو المربي الناجح ويكون خيراً من ذلك لو أنه كان أسوة عملية تطبيقية تجعل المربي يحترم الكلمة لأن لها مدلولاً في واقع الناس وفي حياتهم.

---

(١) محمد إقبال شاعر باكستاني شهير.

لذا. . . نقول إن الشباب حين يحاول أن يعالج قضيته يجب علينا أن نواجهه. . .

بأن نعوضه ما فاته من التربية وأن نعوض عليه ما فاته من التأديب حتى نستطيع أن نعالجه، لأنه لو أنه رُبّي وأُدب في الفترة التي هباها اللَّه لذلك لكانت هناك وقاية من المرض، ولكنه ما دام لم يُرَبّ كما أراد اللَّه ولم يُؤدَّب كما أراد اللَّه فهنا يأتي الداء، وما دام قد جاء فأنت تعالج ولا أقول تربي.

الآفة الآن:

أننا حين نرى الشباب ينفلت من أمر التربية، وينفلت من أمر التأديب لا يواجه بمجتمع يقسو عليه قسوة الرحيم، ومعنى قسوة الرحيم. . . أنه لا يقسو عليه لأنه يكرهه، ولكن يقسو عليه لأنه يحبه وما دام يحبه، فيحب أن ينغرس في نفس الشاب الذي أصابته داءات الحياة وانحرافاتها، إلى حب معالجته، وأن يعتبره أميناً عليه، لا أن يعتبره مكروهاً منه؛ لأن الكراهية تكون لدد الخصومة والعناد، وكثير من الناس لا يعرفون متى يعالجون انحراف الشباب، لماذا؟ لأنهم يظهرون لهم بمظهر الكاره لعملهم، ولكني أحب أن ينظروا إليهم نظرة المحب لشفائهم، ولذلك. . . نجد هذا الأمر في الطب البدني، حين نرى

إنساناً مصاباً بآفة عضوية بدنية، أنحن نعاديه؟ . . . لا إننا نتودد إليه ونستميله، ونظهر له عطفنا وحبنا وحناننا حتى يكون على ثقة مما يتناول من أيدينا من وسائل الشفاء، وكثير من الشباب يذهب بهم لدد العناد إلى المخالفة لمجرد المخالفة، لأن الذي أراد أن يعالجهم كرههم في العلاج، ولم يغلف دواءه المر في برشامة تستطيع أن تفعل فعالها دون أن تمر بمرارة المذاق. الإنسان منا حين يعالج هذا الأمر، لا بد أن يعالجه بحكمة، هذه الحكمة هي التي يقول اللَّه فيها.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل؛ ١٢٥].

لماذا؟ حتى لا تثير فيهم لدد العناد، لأن لدد العناد يورث المخالفة وقد تكون المخالفة، لا لأنه لا يقتنع بالأمر المخالف فيه، ولكنه يريد أن يغيظ من يأمره بغير هذا الأمر المخالف. وربما لو لأنه استتر عنه لفعل ما تريد، ولكنه أمامك يصر على أن يكيدك وأن يغيظك.

إذاً. . . فالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، هي الوسيلة التي يجب أن تستميل بها الشباب الذي انفلت من دور التربية، وانفلت من دور التأديب، وأصبح له من الذاتية التي يشعر بها، ومن القدرة التي

يتمتع بها، ما يعينه على المخالفة، الإنسان منا حين تفوته خطوة في مسافة الحياة تتطلب منه أن يضاعف خطوه، خطوة تقتضيها المسيرة مع الغير، فالشباب إذن يحتاج إلى خطوتين، خطوة تجبر التقصير فيما فات، وخطوة أخرى يساير بها ما تتطلبه مقتضيات القيم من الالتزام المنهجي لمطلوب هذه القيم، والقيم لا يستطيع البشر من ذواتهم أن يحددوها، اللهم إلا بعد تعب طويل لتجربة المخالف لهذه القيم، فنحن لا نحجر على غير مؤمن بالإسلام أن يهتدي إلى قيمة من قيم الحياة، ولكن حين يهتدي إلى قيمة من قيم الحياة إنما اهتدى إليها بعد عناء التجربة الطويلة، ضغطت عليهم الحوادث ضغطاً ألجأهم إلى أن يعرفوا القيم ويذهبوا إليها، ولكن القيم حين تتقبل من السماء. . . تعفي الناس من تجربة غير القيم، ولذلك نجد أن التقنيات البشرية، حينما نستعرض خطواتها في التقنين والتطبيق والتعديل والتفسير، نجدها تحاول أن تستدرك بالتعديل ما فات التقنين الأول، وعدلت لأن التطبيق في الحياة أثبت فساد القضية الأولى، إنما نشأ من ضغط الأحداث التي صيرت هذا الفساد واقعاً مؤلماً.

إذاً. . . فمن الممكن لأي عقل بشري يبغي الإصلاح، أن يهتدي إلى قيمة من قيم الحياة، ولكن بعد أن يتعب من

آلام التجربة فالمنهج السماوي يعفينا من هذه الآلام، لأن الذي وضعه هو الذي خلقنا، وهو الذي يعلم ما يصلحنا، فبدل أن تجرب ويجرب ونشقى ونشقى ونشقى، حين آمنا باللَّه إلٰهاً حكيماً قادراً عليماً يجب أن نأخذ القضايا التي شاء اللَّه أن يخرجنا بها من أهواء نفوسنا ومن شقاء التجربة، أن نسلم بها تسليماً مبدئياً، وأن الذي قنن أولاً من البشر جهل مقتضيات هذا التعديل فيما ينطبع من سلوك الحياة.

خلقنا اللَّه سبحانه وتعالى وأمدنا كما قلنا بمقومات حياتنا، وجعل لنا من الطاقات ما نفعل به في عناصر الكون المنفعلة لنرتقي ما شئنا أن نرتقي في أسباب مادتنا، ولكنه سبحانه عصمنا من زلل الأهواء، حين قنن لنا تقنينات تختلف فيها الأهواء، إذن فالتقنينات السماوية التي انتهت بالإسلام تقنينات تخرج النفوس عن أهوائها، لأن المقنن حين يقنن إنما يخضع في تقنينه لهواه وأن يحاول جاهداً أن يتبرأ من هواه، قلنا إن الرأسمالي حين يقنن لا بد وأن يعطف عطفاً ولو غير مباشر على رأس المال، والشيوعي حين يقنن يكون ضد رأس المال، إذن فكل مقنن سيأخذه هواه رغم أنفه إلى مصلحته التي ينتمي دائماً إليها والتي يريد أن يقنن بسببها. وتأخذ التقنينات دائماً

نزاهة عدالتها من أن المقنن لها يجب ألا يكون منتفعاً بها أبداً، أو تضره معصيتنا، وكل ما يكلفنا به عائد إلى خيرنا وإلى مصلحتنا نحن، وهذا ما يضمن نزاهة التقنين والتشريع، والمقنن من البشر يقنن لما علم وما أكثر ما يجهل، ولكن المقنن السماوي حين يقنن لنا، يعلم ما خلق، ويعلم من خلق، ويعلم كل شيء على حقيقته، بحيث لا يستدرك واقع الحياة عليه شيئاً أبداً. إذاً فالتقنينات التي جاءت بها التكليفات، إنما جاءت لتعصمنا من أهوائنا، وآفة الرأي دائماً الهوى.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

والذي يُشقي البشرية الآن هو اختلاف أهوائها، وإلا فأنا لا أزال أكرر وأقول؛ ماذا أصاب حياتنا المعاصرة، حياتنا المعاصرة فيها موجتان، موجة علم مادي يخضع للتجربة المعملية، وهنا الالتقاء في كل معسكرات الحياة، شرقها وغربها، أو كل معسكر من هذه المعسكرات يحاول جاهداً أن يتلصص ليأخذ ما انتهى إليه المعسكر الآخر ليفيد منه في حركة مادة حياة، ولكنه حين يتلصص على ذلك يبني الأسوار حتى لا تتسرب نظرية الأهواء إلى بيئته، فهو يصنع سدوداً أمام نظرة الأهواء، ويصنع خنادق

ومخابئ يسير منها إلى أسرار المادة، فكيف أحب أن يلتقي بهؤلاء التي ذهب إليها هؤلاء، إنه هوى يناقض هوى، ولكن العلم المادي التجريبي كل واحد يحب أن يفيد منه، والنظرية الأهوائية التي تخضع للهوى كل واحد يحب أن يفرض هواه، وما دام كُلٌّ يحب أن يفرض هواه ليصنع السدود والحواجز أمام أهواء الآخرين حتى لا تتسرب إلى بيئاتهم، وبعد ذلك يصنع المسارب تحت الأرض ليصل إلى ما انتهوا إليه من تقنينات مادية، وآثار كونية هذا الخلل يدلنا تماماً على أن الأمر المادي، الذي أطلق اللَّه فيه طاقتنا، وأطلق اللَّه فيه مقدرتنا الذهنية لنصل إلى أسرار الكون، أمر متفق عليه، لا يختلف عليه أحد، ولذلك ترك اللَّه للناس ميادين نشاطاتهم ليفعلوا فتنفعل لهم المادة بخير ما يحبون من آثار المادة، ولكنه شرع لهم لتجربة معملية ولكن تخضع للهوى الشخصي، وآفتنا الآن أن الهوى الشخصي، لكل معسكر من المعسكرات، يحاول أن يزحف على الآخر زحفاً، يستعمل فيه كل إمكانيات ما اتفق عليه، فاستغل ما اتفق عليه من أسرار المادة والعلوم المعملية ليفرض النظرية والأهواء، التي يسير عليها ليحكم بها الدنيا وهذا هو سر شقاء الدنيا وإلا كان المفروض بعد هذه الابتكارات، وبعد هذه

الاختراعات أن تهدأ الدنيا وأن تستقر، وأن ترتاح، وأن يسعد البشرية فما الذي يشقيها، كلما تقدمت في العلم المادي، تقدمت في الشقاء والقلق، وفي الاضطراب لماذا؟

لأن هناك شيئاً مختلاً في جهاز هذا الكون، وهذا الشيء لأننا لن نتفق في الأهواء كما اتفقنا في العلم التجريبي، إذن فالذي أفسد علينا مبتكراتنا فيما انتهى إليه أمر المادة إنما هو اختلاف أهوائنا، ولذلك يطلب الرسول منا أن يكون هوانا تبعاً لما جاء به من اللَّه، وحين يظل الناس في أهوائهم أحراراً، ويظل الناس فيما يذهبون إليه من نظريات غير محكومة بتجربة معملية تخطئ وتصيب، إلى مدى لا يعلمه إلا اللَّه. وإذا كان غير المسلمين معذورين في أن يقننوا بأهوائهم فليس للمنتمين إلى الإسلام عذر في أن يقننوا لأنفسهم ما داموا قد آمنوا بإله، وهو المأمون على أن يقنن، على أن يشرع وهو الذي لا ينتفع أبداً بما قنن أو شرع، اللهم إلا أن يؤخذ الإسلام على أنه شهادة ميلاد، أو رقعة جغرافية.

إننا نريد أن ننتبه جيداً إلى أن خصوم الإسلام لا يريدون أن يستيقظ الإسلام ليستولي على حركة الحياة في الدنيا، لأنهم جربوا الإسلام، فعلموا أنه لم يقم على عدله ظلم،

ولم يبق أمام سماحته جبروت، وعلموا جيداً أن الإسلام العملاق إذا استيقظ فإنه لا وجود لقوة طغيان في الأرض، فهم يحاولون أن يدخلوا على المسلمين أنفسهم بما يبهت فيهم قضايا الإسلام، وبما يزهدهم في كل قيم الإسلام، ويريدون أن يخدعونا بما زيفوا لنا من حضارات، ومن مدنيات وجعلونا نتبعهم دائماً فيما لا نريد، وذلك أول التبعية. ولأن الذي يريد أن يرتقي يجب أن يرتقي على حساب ذاته، لا يرتقي على حساب غيره وإلا، ألف الارتقاء، وما دام قد ألف الارتقاء بغير ما أنتج ليستعبده من أنتج.

إننا نريد أن تكون الدولة إن شاء اللَّه دولة إسلامية، كما أن الأمة أمة إسلامية واعلموا جيداً أن دنيا العرب، ودنيا المسلمين تابعة لمصر، ضالة كانت أم مهدية، فإذا ما سنت سنة ضلال اتبعوها، وكذلك إذا ما سنت سنة هدى اتبعوها، فوزر العرب ووزر المسلمين في جميع بقاع الأرض على مصر، وخير العرب وخير المسلمين جميعاً منسوب إلى مصر، يجب أن نتنبه جيداً إلى أن أجدادنا وآباءنا كانوا يقولون لنا إن القادم على مصر أول ما يطالعه (**يا داخل مصر إن كنت تريد الهدى تجد مهديين، وإن كنت تريد الضلال، تجد الضالين**) فمتى نكون مهديين

جميعاً، حتى لا يجد من يدخل مصر إلا هدى محض، نسبته إلى اللَّه ونسبته إلى منهج اللَّه وقوامه حكم يعلنه المؤمنون باللَّه.

وإذاً أقول: من لم يعجبه حكم الإسلام. فليراجع إيمانه باللَّه، فإن لم يراجع إيمانه باللَّه سيظل مخدوعاً في نفسه، خاضعاً لغيره ولا نحب للناس جميعاً في كل قطاع من قطاعات حياتهم إلا أن يبحثوا الأمر فيما بينهم وبين أنفسهم، ما الذي لا يعجبهم في منهج اللَّه. أرأوا قضية اهتدى إليها العصر بعد شقاء التجربة لا توجد في الإسلام؟ أرأوا شيئاً جديداً جاء به غير المسلمين، ولم يأت به الإسلام إن الإسلام له السبق، وله التميز وله الاستيعاب لكل أقضية الحياة، فإذا كان غير المسلمين يحتاجون إلى وافدات تقنين فما أغنى المسلمين عن هذه الوافدات، فاسأل اللَّه سبحانه وتعالى أن ينبهنا جميعاً إلى أننا مسؤولون عن حمايته لقولنا الحياة أن لا إلٰه إلا اللَّه، وأشهد أن محمداً رسول اللَّه، فكل حرية تناقض هذه الشهادة حركة تكذب هذه الشهادة، واللَّه أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى أن توجد فينا أسوة صالحة تحبب لنا الخير، وتحببنا في الخير، وتقودنا إلى الخير.

الفكر المعاصر

نأتي بعد ذلك لقضية الفكر المعاصر، الفكر المعاصر عبارة عن نشاطات ذهنية:

والنشاطات الذهنية أنواع:

١ ـ نوع محكوم بإطار دين الحق.

٢ ـ ونوع محكوم بإطار غير ديني أصلاً.

٣ ـ ونوع محكوم من قوم لهم دين، ولكنهم لا يمكنون من قيادة حركة الحياة.

فالأفكار المعاصرة مصدرها ثلاثة:

١ ـ إما أفكار ناس محكومين بدين الحق.

٢ ـ وإما أفكار ناس متدينين بدين يؤمنون أنه حق. وإن كان زيفاً، إلا أنهم يعزلون الفكر المادي أو الدنيوي عن قيادة الدين.

٣ ـ وإما أن يكونوا أناساً ليس لهم دين أبداً.

وهذه الأفكار حينما يقف الإسلام منها، نقول: يا من لا تؤمنون بدين، إن حجتنا عليكم ما قلنا من ضرورة

الإيمان باللَّه نفسياً وعقلياً واجتماعياً وارتقائياً ولغوياً، وبعد ذلك ما علينا إلا أن نؤمن به، الذي يدل على إفلاسك حين تريد أن تسود نظاماً من وضع عقلك، وتريد أن تخرج مؤمنين باللَّه من نظام لهم، لا تقارن نظامك بالنظام الذي يعيشون به، بل انتقلت إلى مسألة ليست في موضوعية البحث، تأتي لتقول إن الإيمان باللَّه خرافة، والدين خرافة (طيب اترك الإيمان جانباً والدين خرافة) وخذ أثر الإيمان وهو منهجه. ثم قارن أثر الإسلام وهو منهجه بمنهجك، وهو يريد أن يزلزل في أنفسنا القيم الإيمانية، حتى ننصرف عن كل ما تخلف عن القيم الإيمانية.

نقول له: «لا... هذا ليس نقاشاً». هَبْ أن هذا من وضع محمد، هَبْ أن هذا من وضع المسلمين، فالكلام الموضوعي المنهجي، هو أن تأتي بالنظام، ثم نرى هل هو مثل نظامك أم أفضل؟ هذه الأصول، إنما ندخل في متاهة وتقول: الدين خرافة، يا سيدي الدين خرافة عندك وحقيقة عندي، إذاً: الموضوع الذي يربطني بك هو نظام هات نظامك وخذ نظام الخرافة، قارن هذا بذاك، هات أي جزئية من الجزئيات، لكي تراها إذن، أنت تدخلت في أمر لا يعنيك، هذا الأمر هو أن النظام الإسلامي استمد قداسته

عندنا، لأنه من صنع خالقنا، فأنت تريد أن تزلزل فكري عن صنع خالقنا، ولماذا يجعل فكرك أولى من فكري؟ إذن، ما أيسر الرد على من له فكر، في غير إطار ديني يعتقد به.

تأتي لقوم آخرين لهم دين أيضاً، ولكنهم لا يُحكّمونه في نظام الحياة لأنه عندما حكم في نظام الحياة جرب ففشل، هنا تجد معسكرين، المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ـ المعسكر الشرقي يمثل فكرة (لا دين) والمعسكر الغربي يمثل فكر (هناك دين) ولكنه معزول عن قيادة حركة الحياة، لماذا؟ معذورون لأنهم جربوا قيادة الكنيسة وقيادة البابوية، فلما جربوها وجدوها فاشلة، خنقت كل فكر أن يتحرك وكل ذهن أن يعمل فتخلفت أوروبا على يد الكنيسة، وعلى يد سلطة البابا، وعندما اتصلوا بالمسلمين في الحروب الصليبية وعرفوا منشأ القوى لدى المسلمين، لأننا لا نملك لا كنيسة ولا بابا، كلنا في العبودية للَّه سواء الخالق.

«لا طاعة لمخلوق في معصية اللَّه».

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٦].

ثم يأتي في آية بالغة ويقول؛

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٩].

انفراد بأمر الطاعة.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾ [النور: ٥٦].

ثم عندما يدخل عنصر البشر غير الرسول، ويقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فلم يكرر معهم أمراً بطاعة؛ ليدلنا على أن طاعة البشر لبشر مثلهم غير مختصين برسالة، إنما هو من باطن طاعة اللَّه وطاعة رسوله، فليست لهم طاعة ذاتية، وإنما الطاعة من باطن ما تطيع اللَّه به وتطيع رسوله، ولكن لماذا اختلفت الأساليب؟

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١].

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣].

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

دون تكرار الطاعة.

تقول: هذه دقة الأداء القرآني لأن الذي يتكلم هو الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لأن الأحكام التي تتلقاها مرة يقول اللَّه مثلاً:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ذلك أمر من اللَّه أن يطاع. الرسول نفسه قال هذا الحكم.

«أيها الناس إن اللَّه كتب عليكم الحج». إذن التقى أمر الرسول مع أمر اللَّه فالمطاع فيه أمر واحد يقول:

﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١].

لأن الأمر واحد، ومرة يكون للَّه أمر مجمل وللرسول أمر تفصيلي مثل حكاية الحج مثلاً ـ خذوا عني مناسككم إذاً: عندما أقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: في أنه كتب الحج، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. لأنه أيضاً قال: كتب عليكم الحج وبعد ذلك، قال: خذوا عني مناسككم إذن فللَّه طاعة، وللرسول طاعة، يتوارد أمر الطاعة على شيء واحد، هذا في الإجمال وهذا في التفصيل، وبعد ذلك يأتي أمر لم يشرعه اللَّه في نطاق الدستور الأصيل فيقول:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٦].

لم يأت ذكر اللَّه هنا. لماذا، لأنه وضع بهذا الدستور القرآني يقول:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

كأي دستور عندما يضع أي تقنين، لا تجد في الدستور

أن الموظف الذي يتغيب ١٥ يوماً يفصل، أي أن الدستور أناط بالجهاز الوظيفي أن يضع من القوانين ما شاء منها يصيغ ذلك بأمر الدستور الأصيل، ما دام قد قال اللَّه:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

إذاً لا يجوز أن يُقال إن هذا الحكم لم يرد في القرآن، لأن الرسول جاء ليبين. ولأن الدستور وضع أمراً بأن ما يفعله ويقرره يصبح أوامر... إذاً لا بد أن يفرد الرسول بطاعة:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٦].

إذاً: الطاعات أنواع:

طاعة اللَّه وطاعة رسوله معاً، في الأمور حين يتفقان فيه. تفصيل.

فأنا أطيع اللَّه في إجمالي ما افترض، وأطيع الرسول في تفصيل ما فصل.

وبعد ذلك جاء أولو الأمر: يا ولي الأمر أنت نائب عني بواسطة القاعدة الكلية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ أعطى له أمراً استقلالياً، وكان اللَّه سبحانه وتعالى ـ بهذه الآية التي أمر بها رسوله في الطاعة، يرد على قوم أخبر عنهم رسول اللَّه ـ ﷺ ـ فقال

ماذا، قال: يوشك رجل أن يتكئ على أريكة، ومعنى ذلك أنه جالس جلسة العظمة... يقول: يتكئ، بيننا وبينكم كتاب اللَّه فما وجدنا فيه من حلال حَلَّلناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه.

متى تطرح سنة الرسول «ألا وإن ما حرم رسول اللَّه كما حرم اللَّه».

والدليل على ذلك أننا نجد من حكم الواقع ما يؤيد هذا، فالعالم الآن فيه موجتان:

(١) **موجة علم مادي:** ومعنى علم مادي أي أنه محكوم بالمادة وبالتجربة وبالعمل، أي الملاحظة بالتجربة العملية والنظرية فالحقيقة العملية هل أفاد العالم بالمخترعات والأشياء التي رفهت الحياة وقصرت المسافات وأعطتنا متعاً... إلخ. هل توجد كهرباء أمريكية وكهرباء روسية؟ لا توجد كيمياء إنجليزية وكيميائية ألمانية كما قلنا من قبل... لماذا؟ لأن موجة العلم المادي لا تجامل فهي تعطي الحقائق، فاتفقت المعسكرات، وإذا كان هناك خلاف في كيمياء فهو خلاف في تأتِّي الصنعة فقط في دقتها: اختراع الأصباغ، اختراع المواد المذيبة، الألوان الثابتة وغير الثابتة، وهنا نقول: إنهم اتفقوا في هذه النقطة، لأنهم محكومون بالمادة.

(٢) **والموجة الثانية**: موجة مذهبية نظرية. كلام نظري يعني كلاماً غير معملي وغير تجريبي؛ يعني كل واحد يحاول أن يقول نظرية ويبررها، فوجد في الكلام النظري معسكرات: (معسكر شيوعي) (ومعسكر رأسمالي). ولذلك... تجد أن اختلافهم في المذاهب النظرية أفسد التقاءهم فيما التقوا عليه من مواد وسخَّروها لخدمة الأهواء. وكل واحد استغل هذه الآثار التي نشأت عن الترقي الفردي، وجعلها وسيلة من وسائل فرض النظر، ونحن نقول: إن فرض النظر هذا ليس صواباً، ثم تأتي لتحكمكما أنتما الاثنين.

أولاً: لا تطالبونا أبداً لأن نبرر أن الإسلام قمة في التشريع، لماذا؟ الإسلام لم ينزل اليوم، الإسلام نزل من (١٤) قرناً ولم ينزل نظرياً، بل تعرض للتطبيق الفعلي، وأسست عليه مدنية، وقامت حضارة، كانت عندنا حضارة عندما كنتم تطلقون على بلادكم (القرون الوسطى) المظلمة، ففي أيام «هارون الرشيد» صنع العلماء الماديون ساعة، وأرسلوها هدية «لشارلمان». فلما رآها شارلمان قال: إن بها شيطاناً مثلما قلنا نحن على الراديو أول ما ورد إلينا.

وثانيا: إذا أردت أن تعرف الأسس والبذور التي غرسها

الإسلام في حضارته وفي مدنيته، فاقرأ للمنصفين ممن كتبوا عن تاريخ الفضاء، اقرأ مثلاً ـ «شمس العرب تطلع على الغرب» لوكفريد تونج... تجد أن كل ناحية من نواحي التقدم: البذرة والخميرة للعرب المسلمين طبعاً، لأن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم شيء.

اذهب إلى المكتبة في نيويورك، ترى المكتبة بها مبنى زجاجي عال، رمز قاعة المطالعة صورة العربي بزيه أمام الأمبيق الذي يجرب فيه العمليات الكيماوية...

إذاً الإسلام تعرض للتطبيق، وظلت أمته الأمة الأولى في العالم قرابة ألف سنة إذاً، فلا تقل إن الإسلام لم يكد ينزل الآن لتجربه، لقد جربناه وجدناه في تشاريعه، ليس فقط ما يساوي الاشتراكية في الإسلام، وغير ذلك من الهراء، عيب أن نقول هذا، ولماذا لأنه لو قارنا أيوجد في النظام الاشتراكي أن الدولة ملزمة بأن تعين للمكفوف قائداً مبصراً على نفقة الدولة، هل رأينا مثلاً ذلك؟

أنتم تأخذون من مال الناس لتعطوا للناس، هل وجد عندكم إيثار؟ نحن نعطي حق اللَّه ونتطوع بشيء، بل أيضاً عندما يكون لديّ شيء واحد وغيري محتاج إليه فإن لدينا:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وأيضاً في التقنينات الأخرى التي تنظم شؤون الحياة، إن لدينا الإيمان يبدأ من: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٥].

حتى:

«إماطة الأذى عن الطريق».

حتى النظافة يعني، جزئيات دقيقة لم يكن لعقل أن يدرك أن تكون تلك موضوعات تشريع. هل وجد في شرائعهم ـ مثلاً ـ أن الرجل الذي يعجن العجين ليخبز، لا بد أن يغطي لثام أنفه وفمه؟

كان المحتسب في قديم الزمان، يصادر العجين إذا وجد الرجل دون لثام لأنه من الجائز أن يعطس فتتسرب ميكروبات مرضه إلى العجين.

وأيضاً من الذي يقنن للحلاق الذي يحلق للناس؟ الحلاق يحتم عليه وضعه في مهنته أن تكون أنفاسه في وجه الزبون، وهنا يمنع المشرع أكل البصل والثوم عند الحلاق، حتى لا يسبب للزبون ضيقاً أثناء الحلاقة. هل وصلت التقنينات إلى هذا الحد؟ يقول أيضاً: إن رأيتم جزاراً ينفخ الذبيحة من فمه. فلا بد من عقابه: هل كنا نعرف أن هذا هو ثاني أكسيد الكربون، وأنه يمكن أن يدخل اللحم ميكروب؟ إذن فيقول: «ضع لها بديلاً في

الإسلام فأقول له: أنا غير ملزم يا أخي، لأن الإسلام (متركب على بعضه)».

الإسلام لا يتخذ قضية واحدة الإسلام يتخذ قضايا مسلسلة، يعني قبل أن يحرم الربا، ماذا صنع؟ الربا الذي يمثل أساس الخلاف بيننا وبينهم الذي يعتبرونه الدعامة الاقتصادية في الحياة، وإن عطلتموه فستظلون متخلفين الخ. رد عليه بالقول: اقرأ آية الربا في سورة البقرة.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وبعد هذه الآية عشرون آية كلها في النفقة بجميع ظروفها الإنسانية والنفسية والتهديدية والامتنانية قبل أن يحرم الربا، وضع الرقة للنفقة، حنَّن القلب البشري ثم وردت آية الربا، أي إن الربا لم يأت عن خلاء أو دون أرضية، لكن هذه إذن حركة الحياة، لا بد أن تحكمها بقانون الذي خلقها، وأن اللَّه عندما يريد أن يدخلني الجنة يقول:

فيها ما لا عين رأيت، ولا أذن سمعت.

ويشرح الرسول ﷺ قول اللَّه سبحانه وتعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

إذاً فهو بذاته يسبقني إلى الخير بقانون النفعية الذاتية، فالإسلام في مبادئه يقول للرجل الأناني: واللَّه إن كنت تحب نفسك فعلاً، لأصبحت مسلماً، لماذا؟ لأن الإسلام يعطيك كذا وكذا وكذا. وقد يقول إنه يقيد حريتي، والرد: إنه يقيد حريتك حقاً، ولكن من أجل حرية الملايين، وقال لك: لا تسرق وحدّد حريتك في أن تأخذ مالاً حراماً، ولكنك تنظر إلى ذلك على أنه تحديد حريتك أنت: ولكنه من أجلك أنت حدد حرية ملايين الناس، فقال لهم: لا تأخذوا منه، فلا تقارن ما أخذه منك إلا إذا قارنته بما أعطاك.

يقول لك أيضاً: غض بصرك عن محارم الغير، فتسأل: ولم يريد أن يمنعني من رؤية الجمال والتمتع به؟

والرد عليه: أنه حدد بصرك لجمال أخلد وأحسن، وحدد بصرك كما حدد من أجلك أبصار ملايين الناس من أن ينظروا إلى محارمك، إذن، فكما أخذ منك شيئاً أعطاك أشياء، وذلك في قانون الدنيا، وبعد ذلك يأتيك في الآخرة متعة من الفضل، إنما كل شيء ستأخذ جزاءه واضحاً.

ولذلك فعندما نأتي إلى شخصين **أحدهما**: حملق في الجمال وأدام النظر فيه، **والثاني**: لم يحملق فيه، نقول

عن الثاني: إنه أعشق للجمال ممن أدام نظره، لقد عف عما حرم اللَّه ليرى جمالاً أزلياً أبدياً أحله اللَّه له، فمن منهما أعشق للجمال؟ ذلك أخذ نظرة عابرة يكون بسببها في النار، أم الذي غض بصره ليأخذ حظه من الجمال حظاً واسعاً خالداً.

تلك هي مهمة الإسلام التي جاء من أجلها، سبق الإسلام بدينين عظيمين: الدين الموسوي والدين المسيحي: تلاحظ على الدين الموسوي أن المادية ـ بعد تحريف الكتاب ـ طغت على كل بنود الدين، تقرأ التوراة فلا تجد كلمة عن اليوم الآخر ولا قيم، وإنما مادي صرف، حتى إنهم أرادوا أن يطبقوا قانون المادة على اللَّه:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

أيها الأغبياء هل ذلك الإلٰه الذي يُرَى جهرة، يمكن أن يكون إلٰهاً؟ ثم يقولون: إن الإلٰه قد مشى في الجنة، ثم سمع يعقوب صوته فاصطرع معه، وكاد يعقوب أن يصرع (ربه). فقال له يعقوب: استح فأنا ربك، ثم جعلوا بيوت أنبيائهم بيوت دعارة؛ فإبراهيم أخذ سارة إلى مصر لكي يراها فرعون مصر، ويعجب بها ويعطيه بقرات وخلافه.

دين كله ماديات لا معان ولا قيم، دين أصبح بتحريفه لا يمكن أن يصلح لقيادة الحياة، فإذا كان هذا الدين أخذ

الماديات كلها، فإذا جاء دين بعده. أيعطيهم ماديات أم العنصر المفقود؟ يأتي العنصر المفقود وهو الروح، فجاءت المسيحية بقيم روحية بعيدة عن الأمور المادية تماماً، لماذا؟ لأن ذلك هو العنصر المفقود عند بني إسرائيل، ويقول اللَّه:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾ [آل عمران: ٤٩].

جاءهم رسول لكي يعدل لهم المزاج الإيماني: يا قوم يا من انصرفتم إلى المادية البحتة وعطلتم منهج ربكم عن القيم الروحية؟ لقد أرسلت لكم عيسى لكي يقدم قيماً روحية، بحتة، ثم تضم القيم الروحية في المسيحية إلى الماديات التي عندكم، فينعدل المزاج الإيماني، ويكون تشريعاً صحيحاً يمكن أن ينسب إلى اللَّه، لكن هؤلاء عادوا هؤلاء... فظلت اليهودية في ماديتها وظلت المسيحية في رهبانيتها وأصبحت لا تصلح لقيادة المجتمع.

فلما جاءت الكنيسة وسيطرت المسيحية أصبحت المسألة رهبنة، فنادى الناس إلى إبعاد الكنيسة وقام «مارتن لوثر»، فلما أبعدوا الكنيسة نشط الذهن العقلي، وابتدأ يخوض بنشاطه في علم المادة والتجربة الخ، فارتقت البلاد وقالوا، هذا ما جنته علينا الكنيسة، ولو لم تكن

متحكمة . . . لكان ارتقاؤنا قد سبق عدة قرون

إذن . . . الكنيسة مُعوِّقة والمسيحية نفسها هي التي عوِّقت، لأنها رهبنة وخلافة، بل قالوا: إن الأديان في مجموعها مُعوِّقة . . . وبذلك خلعوا على كل الأديان وزر المسيحية المحرفة. ومن العجيب أننا قد سمعنا هذا الكلام من مستشرقين بأن الدين خدم التخلف، ونقول له: لقد كان الدين تخلفاً عندك، لكنه لم يكن تخلفاً عندي، جرعتان من طبيبين: طبيب إذا أعطى جرعة صح الجسم، وإذا امتنع عن العطاء مرض الجسم، وطبيب آخر إذا امتنع هذا عن دوائه يضعف الجسم، وإذا امتنع عن أخذه يقوى الجسم، ما الذي يدل عليه ذلك؟ يدل على أن الجرعة الأولى جرعة حق حينما يأخذها يقوى، وعندما يمتنع عنها يضعف، أما الجرعة الثانية فباطلة، لأنه عندما يأخذها يضعف وعندما يتركها يشفى.

كذلك الدين الإسلامي عندما قاد الحياة في المسلمين أسس حضارة ومدنية، وعندما تخلى المسلمون عن إسلامهم انحطوا وتخلفوا، ودين آخر يقابله وهو المسيحية عندما أخذوا منه ضعفوا، وعندما تركوه جانباً وأخذوا نظام حياتهم السياسية المدنية جانباً بعيداً عن الكنيسة

تقدموا. . . إذن فتلك جرعة حق، جرعة باطل، ولذلك نجد أن اللَّه لم يترك اليهود والمسيحيين دون أن بشرهم بما آلوا إليه من هذه مادية بحتة، وروحانية بحتة عن أصلها، كيف عندما يحكي اللَّه، اللَّه يقول:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

لا يكون شديداً على الكفار إلا إذا كان موصولاً بقوة، ولا يكون بهذه الشدة إلا إذا كان لديه العلم المناسب لإيجاد معدات هذه الشدة.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا﴾ [الفتح: ٢٩].

كلها قيم ﴿سُجَّدًا﴾ ليسوا مغرورين بعلمهم أو مالهم أو إمكانياتهم.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٩].

والسجود هو أقصى ما يمكن من خضوع العبد لربه، كلها قيم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الفتح: ٢٩].

يعني كأنه قال لهم في التوراة: يا بني إسرائيل سوف تختلفون في منهجكم، وسأبعث رسولاً لديه قيم مفقودة

عندكم، بذلك ترك العنصر الموجود، وأتى بالعنصر المفقود في بني إسرائيل.

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

لم يأت هنا بقيم ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ أمور مادية صرفة.

﴿ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩].

فكأنه قال لليهود في التوراة: سآتي برسول يجمع أمرين: العنصر المفقود فيكم وهو القيم، وفي الإنجيل قال: سيأتي بالعنصر المفقود فيكم وهو المادية، فالإسلام بهذا النص جاء ليقول الحياة في ميدانيها:

الميدان القيمي الروحي: الخلقي، الذي يصون كل حضارة عن شراستها وطغيانها.

والميدان الآخر: الميدان المادي الذي نبهنا اللَّه إليه، ونبهنا بأول وسيلة من وسائل العلم التجريبي وهي الملاحظة... بقوله:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فحين ينعي اللَّه على القوم أنهم يمرون بآيات ربهم وهم عنها معرضون، فمعنى ذلك أنه يريد منهم أن

يلاحظوا كل ظاهرة، وأن يلاحظوا كل آية، بملاحظة الظواهر وبملاحظة الآيات يوجد العلم التجريبي الذي يبتدئ ملاحظة، ثم يثني به تجربة، ثم يثني به نظرية ثم ينتهي إلى حقيقة علمية تقود مادية الحياة.

كيفية المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب؟

وضع الرسول ﷺ الحد لذلك، قال: لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومعنى: لهم ما لنا وعليهم ما علينا، أي لا نتميز عليهم بحقوق، وأن لا يلفتوا منا بواجب، الأمر الذي جعل أمة الإسلام أمة انساحت بدينها في كل أقطار الدنيا، لا تظنوه اندفاع فتح فقط، ولكنه كان جذباً مفتوحاً أيضاً، اندفاعاً من الناشرين للإسلام، وجذباً للطامعين في عدالة الإسلام.

ولو أن هؤلاء جربوا حديثاً ما حظي به أهل الكتاب قديماً في حكم الإسلام لعلموا أن الإسلام أرحم بهم من ذوات نفوسهم، ونحن حين نتكلم عن أهل الكتاب نعرف جيداً أن المراد بهم الذين يؤمنون باللَّه، ويؤمنون برسل اللَّه، ولكنهم يقفون عند رسول الإسلام وقفة لا تدخله في الرسل، وإن كان بعض المذاهب قد ابتدأ لينظر إلى أن محمداً ﷺ رسول كبقية الرسل، ولكننا نقول؛ إن له عمومية.

الوقفة هنا بيننا وبينهم في العمومية فإذا ما كنا مسلمين، ونطبق الإسلام تطبيقاً عادلاً، فسيجد فيه أهل الكتاب الخير، والرحمة والسماحة والعدالة ولا أدل على ذلك، من أن الشيء الذي لم يوجد له نظير عند بعض أهل الكتاب كالتشريعات والأحوال الشخصية، حين يطلبون منا أن نطبق عليهم أحكامنا هم على ديننا، ويطلبون منا أن نطبق الأحوال الشخصية عليهم، دليل على أنهم يجدون فيها رحمة، ويجدون فيها راحة.

مسألة
تطبيق الشريعة الإسلامية

لقد سبق أن أعلنت رجاءاتي أن تكون الدولة كالأمة الإسلامية، وهذا يجب أن تطالبوا به، يجب أن يطالب بذلك مجموع شعب مصر، لأنه هو الذي يختار الذين يشرعون لهذا البلد، فهل كان في مقياسكم عند من انتخبتموه عهدٌ أن يحكم بكتاب اللَّه؟ يجب أن يكون الأساس الذي تنتخبون نوابكم على أساسه هو هذا العهد.

إننا لا نريد من البشر أن يعلنوا رأيهم في منهج اللَّه، ولكن أريد منكم أن يعلن مجلس الشعب الذي يعطيه الدستور مهمة التشريع لهذا البلد، أنه لا يجد في تشريعات الخالق بديلاً من تشريعات الحق، أريد منكم، وأنتم تمثلون قطاعات مختلفة، أن يكون ذلك هو الأساس الذي تحاسبون نوابكم عليه، ماذا أديتم لدينكم في مجلسكم التشريعي، حين يوجد

مثل هذا يكون النواب قد علموا أنهم اختيروا على أساس أن يعلنوا أن حكم اللَّه هو الذي يجب أن يسيطر على هذا البلد، وأن دستوره يجب أن يطبق تطبيقاً عاجلاً عادلاً.

مسألة اختلاط الفتيات بالشباب

ما حِرْص الفتاة على أن تختلط بشاب لماذا؟ مسألة لا منطقية ولا طبيعية، لقد سبق لي أن عالجت هذا الأمر حينما تكلمت عن قصة موسى مع شعيب، وقلت: إن خروج الفتاة إلى عمل في غير مجال أسرتها أمر تحدده الضرورة المحضة، وقلت: اسمعوا قول اللَّه:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِّ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

كلمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ حددت الضرورة التي أخرجت الفتاة إلى مجال الاحتكاك والاختلاط والضرورة تؤخذ بقدرها.

﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣].

ليست مجرد الضرورة التي أخرجتها حتى يحتكوا بالناس، في حجاب إن كانت في مجتمع.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

ثم تكلم عن دور المجتمع:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤].

يعني حين يرى الرجل امرأة خرجت لتكافح في الحياة عن ضرورة... يجب عليه أن يقضي لها ضرورتها، حتى تذهب إلى سبيلها، ويجب على الفتاة أو المرأة التي تضطرها هذه الضرورة أن تلتمس الخروج من هذه الضرورة.

بنت شعيب قالت:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

هي التي بحثت عن حل، واحد يقوم بهذه المهمة، نحن لا نمنع أن تخرج المرأة إلى العمل، ولكن تخرج إلى العمل إن كان في محيط أسرتها، فما أكثر ما تقوم المرأة الأمية الجاهلة في ريفنا بأعمال لكن مع من؟ مع أبيها، مع زوجها، في محيطها، ليس في هذا شيء، فإن اضطرتها الظروف إلى أن تخرج، فلتخرج في حشمتها وفي وقارها، وفي اتزانها، ولا تجعل هذه الضرورة تبيح لها أن تختلط بالشباب ما شاء لها الاختلاط، هبوا أن ضرورة دعت المرأة وضرورة ملحة، لأن المجتمع مجتمع ليس فيه رجولة، حين يرى امرأة خرجت إلى العمل لا يمكنها من

إنهاء طلبها، لترجع إلى حال سبيلها، لا رجولة خاصة في محيط القوى أو رجولة عامة في المجتمع، وتركت المرأة لحال سبيلها تكافح في الحياة، ما الرابط بين أن تتبرج لتخرج في أبهى زينتها وأكمل حُلّتها؟

ما العلاقة بين هذا وهذا؟ الفتاة التي تخرج لتتعلم قلنا إنها ضرورة اضطرتها إلى الاختلاط. فما ضرورة أن يكون ميدان الجامعة ميدان تبرج؟ تلبس أحسن الأزياء، أنا قلت سابقاً: هل العلم لا يسمع إلا من بين الصدور؟ يكون الثدي ظاهراً. هل العلم لا يستقبل إلا بالسيقان المكشوفة؟ هل العلم لا يؤتى ثماره إلا باللباس الكاشف؟

تعقلوا يا قوم، هناك فرق بين ضروريات تدعو لها الحياة بكاملها وجلالها وشرفها، الفتاة حين تخرج كما نشاهد الآن تلح في عرض نفسها على الرجل؛ لأن مبالغة المرأة في تبرجها خارج منزلها إلحاح في عرض نفسها على الرجل، يعني (بص يا بجم، الشباب في حاجة إلى من يجلد غرائزه، حسبه سعار غريزته في سنه، فلا تلهبوا غرائزه فوق ذلك، يحتاج إلى مبردات لا إلى مهيجات، فرقوا يا قوم بين حركة العمل في الحياة وبين إغراءات هذه الحياة).

أظن أن الفتاة تخرج للعمل محتشمة في زيها الوقور

الجميل، لا توحي لواحد أن يتقبلها بكلمة جارحة، ولأن اللَّه يقول:

﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

(يُعْرفن) يعني يعرف أن هذه محتشمة، ليس حفظها أن تعرض جمالها على الناس من أجل أن تستميلهم، فما دام عرف عنها هذا... فلا يقدر أحد أن يقول لها كلمة:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

يعني أنهن لسن متبرجات من أجل أن يسترعين النظرات إليهن، ولا إلى الكلام:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

كل ذلك تظن الفتاة أن الإسلام قد قسا عليها، والإسلام في ذلك إنما يؤمن حياتها الجميلة، اسمعوا هذا التعبير الجديد، فيها تأمين ضد الحياة المالية، يأخذ مني وأنا غني أجلُّ من أن يعطيني وأنا محتاج.

هذا التأمين المالي فيه تأمين جمال، ما التأمين الجمالي هذا، حين يريد اللَّه الفتاة أن تكف شر جمالها عن الشباب لا يريد أن يقيد حريتها، إنما يريد أن يُؤمّن حياتها حين تكون شيخة كهلة شائبة مُغبّشة، إن الذي تزوج استقر له

الأمر وأصبح له أولاد، ولا شك أن امرأته فقدت النضرة التي من أجلها تزوجها، فإذا لم ير غيرها مهيجاً ظن أنها هكذا، لأن الشيء لا يتغير عند مديم النظر إليه.

يعني أن الإنسان عندما يتزوج زوجته غداً كاليوم، وبعد غد كاليوم، لا يمكن أن يعرف الفارق أبداً، يظل الفارق هكذا، كما أنك لو نظرت إلى طفلك الوليد طول حياتك لا تراه يكبر أبداً، إنما هو يكبر خلسة منك، إن غبت عنه شهرين تراه كبر، كذلك إذا تزوج اليوم، غداً، المرأة لا تتغير كثيراً عن الأمس، و... هكذا تأخذها، تلتفت تلاقي الشيب دب إليها دون أن تشعر، فتظل الحياة مربوطة رباطاً عقلياً، وإن لم ترتبط رباطاً عاطفياً فحين لا يرى الرجل مهيجاً في الشارع يظن أن امرأته ليس هناك غيرها في الدنيا.

لكن عندما تبلغ المرأة سن الأربعين وخمسة وأربعين، وهو ما شاء اللَّه ـ زي ما بيقولوا ـ متعطش، ويرى بنتاً في سن السادسة عشر يبقى كتّر خيره إذا ذهب إلى البيت ولم يبصق. إنما لو أن هذه محتشمة، ولا تبدي زينتها إلا ما ظهر منها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

كان لازماً هي زوجته الموجودة في الكون، إنما قولوا للفتاة التي تحاول أن تصنع هكذا ليعربد رجال متزوجون على نسائهم، حين يرون فارق المقاييس قولوا إن عدالة السماء ستجعلها تقف نفس هذا الموقف، وحين تصير في سن الأربعين سيرزقها اللَّه واحدة في سن السادسة عشر لتفسد عليها حياتها مع زوجها ومع أولادها.

فهو حين يأمر بحجابها في سن الجمال المخيف، إنما أراد أن يحجب عنها الجمال المخيف حينما تفقد هي هذا الجمال ليظل إدامة الأسرة مبنياً على مقاييس العاطفة أولاً. وعلى مقاييس العاطفة والعقل ثانياً، وعلى مستوى الروابط الجديدة التي تربط الرجل بامرأته أسرياً.

فالإسلام إذن حين يشق على الفتاة بأنها تفعل كذا وكذا هو يفعل لها أيضاً، لا تظن أن الإسلام قد أخذ قطاعاً من الحياة فاضطهده، وإنما هو قد أخذ قطاعاً من الحياة لتصلح به كل قطاعات الحياة، واللَّه مأمون على ما شرع لنا من قيم.

الشيوعية رد فعل للرأسمالية

قام المذهب الشيوعي كرد فعل للمذهب الرأسمالي، رأس المال تحكَّم وطغى وأصبح لأصحاب المصانع شراسة مع العمال، وكما يقول في قانون الحركة إن كل فعل له رد فعل مساو له ومضاد له في الاتجاه. الرأسمالية هنا. ومن تضطهد؟ العمال إذن لا بد أن يأتي رد الفعل في الطرف الثاني وهو العمال. ولكن إذا جاء طغيان من طائفة لا نأمن أن يأتي طغيان من الطائفة الأخرى، معنى ذلك أن الظلم موجه، وإن لم يكن من الناحية المالية، فسيكون من الناحية الثانية، وهذا ما حدث فيأتي الأفراد الذين وضعوا المذهب، ويريدون السيطرة على الحكم، وأقصر وسيلة للتحكم هو أن يتحكموا في لقمة الناس، وما دام قد تحكم في لقمة الناس، فبإمكانه أن يقودهم كما يشاء.

اللَّه يريد ذلك؟ اللَّه يريد أن يأمن الناس على أرزاقهم وعلى معاشهم، وبعد أن أدركوا أن الظلم قد يكون موجهاً من هذه الناحية قام ماركس، الذي وضع النظرية ـ ونحمد اللَّه أن سماها نظرية ولم يسمها حقيقة ـ قال:

«الدعوة ونقيض الدعوة والجامع بين الدعوة ونقيضها كلام كالفوازير. فما الدعوة؟ هي الرأسمالية الظالمة، وما نقيضها؟ أن تستولي العمالية ولكن العمالية قد تطغى ـ ولكن هنا يأتي بعض الأفراد ليجمعوا بين الدعوة ونقيضها، وهذا ما يمثله الحزب الآن».

الرأسمالية التي ينادي بها الغرب، نقول: حينما يوجد مبدأ من المبادئ، والمبدأ سليم في ذاته، حين يكون سليماً في ذاته، ويود أن يرتقي هل يرتقي إلى الأقوى أم يتنازل عن وضعه؟ الرأسمالية كان بها شراسة، ولكن الوضع حكم عليها أن تتنازل عن شراستها، أعطت للعمال حقوقاً، وحددت ساعات العمل، وضعت لهم تأميناً صحياً واجتماعياً.

إذن فقد تنازلت الرأسمالية عن شراستها؟ وما معنى تنازلها عن شراستها؟ معناه: أنها كانت خطأ؟ والشيوعية المواجهة لها قامت، لكي لا تجعل أحداً يمتلك أبداً، ثم ظلت بعنفوان قوتها وتسلطها تعيش مدة طويلة بقوة الدفع. وعندما طال الأمر ظهرت آثارها لأن الحافز أمتنع، وبدأت سيبيريا التي كانت تصدر قمحاً للعالم تستورد القمح، وبدأوا يبيعون رصيدهم من الذهب ليشتروا القوت.

بدأت الشيوعية تتجه إلى وضع الحافز، إذن: تنازلت عن أصلها، كيف ذلك، وأنتم تسمون هذا اشتراكية؟ أما

الشيوعية . . . فلا زالت في الطريق؟ إذن أنت لم ترتق وإنما تتنازل، ومعنى تنازل المقابل يدل على خطئه، ومعنى تنازل الطرفين أنهما لا بد وأن يلتقيا في الوسط .

كذلك جاء الإسلام، احترام الحافز النفسي، لأن ذلك الحافز النفعي هو الذي يدور عليه دولاب الحياة، هل كل الناس عندهم مثالية بحيث يركزون كل جهودهم لكي يخدموا المجتمع؟

إن خدمة المجتمع قد تأتي أمراً طبيعياً لخدمة نفسك والمجتمع سيفيد، رضيت أم كرهت، مثل إنسان لديه مال يراود نفسه أنه بدلاً من تخزين المال أن يبني به عمارة من عشرين طابقاً، بكل طابق أربع شقق، ثم يؤجر الشقة بخمسة آلاف جنيه، فيجمع حصيلة كبيرة، النفعية والتملك هما المسيطران عليه .

سنسلم جدلاً ـ بأنه ليس عنده أي معنى إنساني أو أي معنى اجتماعي فتقول له أن ينفذ فكرته لأن المجتمع سيفاد قهراً عنك، رضيت أم كرهت، فمن يقوم بالحفر سيتقاضى أجراً. وتلك طائفة فقيرة. وسيتقاضى أجراً كل من قام بعمل، سواء نجارة أو أسمنت أو بناء، أو ديكور، أو صباغة، إذن: قهراً عنك ـ وإن تكن ملكيتك الخاصة ـ سيستفيد المجتمع .

الإسلام للمادة وللروح

إذن: الإسلام جاء للمادة وللروح معاً، فمن أراد أن تنهض أمته الإسلامية فعليه أولاً أن يثبت الإسلام في نفوس المسلمين، وأن يجعلهم يزهون بدينهم، ويزهون بإيمانهم، ويعلمهم جميعاً أن هذا الدين ليس آفة في قصور التشريع.

فإذا أرادوا أن تعود لهم عزتهم وسيادتهم وكرامتهم، وأن يقودوا العالم من جديد فعليهم أن يغيروا من أنفسهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولنعلم جميعاً أن اللَّه لا يتغير من أجلنا، ولكن يجب أن نتغير من أجل اللَّه.

احترام قضية الإيمان

إذن: فتعاليم الإسلام لا يصح أبداً أن تقارن بأفكار البشر... لأن في هذا إجحافاً للإسلام. الإسلام من وضع اللَّه، وما دمنا قد آمنا به... فإنه يجب علينا أن نحترم قضية ذلك الإيمان.

ثم نأتي بعد ذلك لنرى ما أعطى الإسلام وما أعطته النظريات، عندما تعرضت انجلترا بعد الحرب للأزمة الاقتصادية، قام شخص يدعى (كنز)، وهو إلٰه الاقتصاد

عندهم وواضع نظريات اقتصادية، صارت القيمة الاقتصادية، ونأتي إلى نظريته فنراه يقول: «لا يمكن أن يؤدي المال وظيفته الكاملة في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى الصفر» لم لا نقول: «تحريم الربا» وفي قانون العمالة نراه يقول: «يجب على الدولة لمناهضة البطالة أن تقوم بأعمال ومشاريع لتشغيل الأيدي... إلخ».

ونرد عليه ساخرين: «أهذا ما وصلت إليه في القرن العشرين؟». إن لدينا العربي قبل الإسلام يقول: «احفر بئراً واطمرها وأعط الأجير حقه». سبحان اللَّه لو أن غربياً قالها لأصبحت نظرية؟ ولأن (كنز) قاله تصبح نظرية، يقول العربي: احفر البئر واردمها، ثم احفر واردم. وأدفع أجراً لكل من يعمل فيها... ولكن لماذا لم يقل (تصدق؟) لا لأنه عندما يتصدق يخلق جيلاً من محترفي البطالة، عليه أن يعمل ليأخذ بعزة وكرامة ويعمل. استفدت بطاقاته في الجود في أن يعمل.

وماذا قال (كنز؟) قال: «إن الاقتصادي الإنجليزي لا يمكن أن ينجح إلا إذا تحقق له شيئان في خط واحد: الإنتاج والتنمية، وألا يتعطل العمال، يعني إذا كان موظف يتقاضى مبلغاً ما كراتب، ثم يستهلك ويشتري منتجات

بقدر مرتبه فلن يستطيع أن يُرقي حياته، هو الذي يوفر، كذلك الدول لا بد أن توجد مدخرات، لكي تكون هناك تنمية مع الإنتاج، ترتقي بالتنيمة وتدوم العمالة بالإنتاج لأنه لو لم تكن هناك تنمية فلن يصبح هناك استهلاك، وطالما قل الاستهلاك يتعطل العمال».

ولكن إذا اتجهنا إجمالياً للاستهلاك، فلن تكون هناك تنمية إذن، ماذا نفعل؟ يسير الإنتاج مع التنمية في خط واحد، وتكون سياسة الفرد حكيمة على قدر إيجاد ذلك التوازن، وتصبح الدولة في مجموعها حكيمة، إذا كانت على قدر هذا التوازن، فلو أنفقت كل دخلها فلن ترتقي أبداً، هل هذه هي النظرية يا سيد (كنز)؟

إن القرآن عندما تعرّض لهذه المسألة لم يتعرض لها بأن قال سورة في التوازن الاقتصادي، بل لمسها لمساً خفيفاً لأنه رب، إله، هذه المسائل التي أتعبتكم وخصصتم لها متخصصين، يلمسها اللَّه هكذا، ماذا قال؟:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ما أنفق بلا إسراف لأنه بذلك لم يحقق مدخراً ينمي به نفسه، وإن قتر فلن يكون هناك إنتاج، لأنه بذلك يعدم الاستهلاك.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

إن غللتها إلى عنقك ستقعد ملوماً من المجتمع، لأنك إنسان بلا خير ولا نفع، وإن بددتها ستقعد محسوراً.

المسلم على إطلاقه هو من ألقى زمام حركته في الحياة إلى غيره، يعتقد قدرته عنه في تصريف أمور تلك الحياة، فليس من المعقول أن يسلم قادر زمامه لعاجز، وليس من المعقول أن يسلم حكيم زمامه لأهوج. وليس من المعقول أن يسلم العالم زمامه لجاهل.

إذن، فلا بد من المسلم إليه أن يكون فوق المسلم قوة وقدرة وحكمة، وعلماً وبصراً بالأمور، وكلما كان المسلم إليه مطلق المعاني في ذلك كان المسلم حكيماً في أن يكل زمام تصريف حركة حياته إليه، ولكن ذلك الإنسان الذي نصفه بأنه مسلم لمن يسلم زمام حياته؟ وهو يرى كل أفراد جنسه، وإن كانت له سيادة على سائر ما في الكون من أجناس، فهم متفاوتون قوة وضعفاً وقدرة وعجزاً وعلماً وجهلاً، وحكمة، وحقاً، فَلِمن من هؤلاء يسلم الإنسان زمام نفسه؟ تواتيه الحكمة في بعض تصرفاته ويواتيه الحمق في أكثر تصرفاته؟ وما ميزه ذلك الإنسان عن أخيه الإنسان ليسلم إليه القيادة؟.

إذن، فوجب على مَنْ يسلم قيادة إلى مسلم إليه أن يتأكد، ويتيقن أن من أسلم إليه زمام حركة حياته أقدر منه وأعلم وأحكم لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه خافية، ولا يأتي الواقع في الحياة بما لم يكن عند ساعة قنن، وذلك أمر مفقود في أفراد البشر جميعاً، وإلا فلو أسلمنا زمامنا إلى مفكر فينا نعتبر له تفوقاً في الفكر... هذا المفكر قبل أن يصل إلى مرتبة إيجاد الأفكار التي يسلم فيها إليه... من تولى قيادته؟

إذن لا بد أن يتولى قيادة شيء قبله، وشيء أحزم منه، وشيء أحكم منه، وشيء أعلى منه، ثم يجب أن يتصف المسلّم إليه الزمام بصفات مع القدرة ومع العلم ومع الفكر ومع الاستيعاب يجب أن يتصف بأنه ليس له هوى فيما يقنن ويشرح، وذلك أمر مفقود في البشر جميعاً.

إذن لا بد أن يكون المسلّم إليه القياد لا هوى له في تشريع أي أمر من الأمور، وسواء أطاع الناس ذلك المسلَّم إليه أو عَصَوْه فإنه سيظل بكل صفات الكمال المطلق، لأنه إن انتفع بشيء مما يُقَنّن فسيدخل الهوى فيما يشرع، وذلك أمر مفقود في البشر جميعاً.

تم بحمد اللَّه تعالى

فهرس المحتويات

مقدمة ٥
الشباب مرحلة وسط ٩
فإذا كان الشباب مرحلة من مراحل العمر،
فما مدلولها؟ ١٠
خير الأسماء ١٥
الطفل وعاطفة أمه ١٦
الكل والجزء ١٨
الكل والكلي ٢٠
المساواة بين الأبناء ٢٥
الفرق بين تعليم العلوم وتعليم القيم ٣١
التربية المادية والتربية المعنوية ٤٢
كيفية التربية ٤٤
ما العلم؟ ٤٦
لماذا نتعلم ونتعب؟ ٥٠
الطموح في الدين ٥١

ارتباط العلوم الإنسانية بالمنهجية السماوية ٥٣
وقفة عقلية ٥٦
التعقل والتصور ٥٩
الرصيد الإيماني ضرورة للإنسان ٦٣
ضرورة الأخذ بالأسباب العلمية بدعامتيها ٦٨
العلم تثبيت للإيمان ٧٢
الفكر ٧٣
القرآن والحقائق العلمية ٧٦
١ ـ النظرية الأولى ٨٤
اسم اللَّه على كل الألسنة ٩٢
قمة العبودية للَّه ٩٨
قيمة العلم: التطبيق ١٠٣
الفكر المعاصر ١١٥
كيفية المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب؟ ١٣٣
مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية ١٣٥
مسألة اختلاط الفتيات بالشباب ١٣٧
الشيوعية رد فعل للرأسمالية ١٤٣
الإسلام للمادة وللروح ١٤٦
احترام قضية الإيمان ١٤٦